#46

مبـارك الهـاجـري

الرجل الذي يتعقبه الظـل

26.10.2018

قصـص قصـيرة

أثر

الرجل الذي يتعقبه الظل

قصص قصيرة

مبارك الهاجري



الرجل الذي يتعقبه الظل

الرجل الذي يتعقبه الظل / قصص قصيرة
مبارك الهاجري

الطبعة الأولى: 1439 / 2018
ردمك: 9-5104-02-603-978
رقم الايداع: 10064/ 1438



دار أثر للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الدمام
تلفون: 00966505774560
الموقع الإلكتروني: www.darathar.net
البريد الإلكتروني: info@darathar.net

الإهداء

إلى اللحظات العالقة في المنتصف، بين الذاكرة والنسيان، تلك التي لا تكاد تعني شيئاً؛ بينما هي في حقيقة العمر الحياة التي نعيشها.

غياب بوهيمي

منذ سنة، ذهب في أحد الصباحات الباكرة التي أتذكرها جيداً ليشتري لنا فطوراً من أحد المطاعم القريبة ثم لم يأتِ بعد. إلى الآن، إلى هذه اللحظة أخذ أجمل الأشياء معه وذهب، آخرها كانت ضحكته الأخيرة حينما ناكفني في المطبخ كما يفعل دائماً عن الطبق الذي أريد، كان يتعلل بأنه لم يسمع جيداً فيصدح بصوته بأنه سيجلب لي طبقاً آخر لا أحبه بالأحرى، فأندفع خلفه إلى باب الشقة ظناً مني أنه لم يسمعني حقاً، فيقبلني ضاحكاً ويخرج؛ لكنني في هذه المرة لم أتبعه كأغلب الأحيان. ليتني فعلت. لستُ أدري هل كان قد شعر بأن قدراً ما سينتظره بالخارج، قدراً غريباً لا نعرف عنه شيئاً؟! استجمع كلَّ ما كان يملكه من حب ومنحني إياه في أثير ضحكةٍ، ضحكة استبقني فيها عندما علم أني لستُ أندفع خلفه تلك المرة، ولَستُ قادرةً على أن أبادله طقسه الملائكي ذلك.

كم كان عليَّ أن أنتظره؟ وكم كان عليَّ لأقلق جراء ذلك؟ لستُ أدري، لست أدري كيف مضى الأمر؟ كيف مضى الوقت؟ متى شعرتُ بذلك الشيء الغريب يقف بي عما كنتُ أعده للفطور؟!

هاتفه كان مقفلاً، كم مرةً هاتفته؟ ربما تجاوزتُ الثمانين. حين لم أجد وسيلةً أدفع بها تكهناتي المرعبة بعد أن تأكدت من أن هاتفه كان مقفلاً، اتصلتُ بحماتي لعله زارها بغتة لأمرٍ طارئ ولعلَّ هاتفه قد انتهى شحنه أو شيء من قبيل هذا السبب الطبيعي الذي أحاول أن أهدئَ به من روعي؛ لكنه لا يكاد يستقر في نفسي حتى تقلقه التساؤلات البدهية المنطقية التي

أغفل عنها في مثل ذلك، أجل كان معه شاحنٌ في السيارة، أعود أشعر بمغصٍ معوي غريب؛ لكنه ربما يكون أصابه عطلٌ ما، ربما، ذلك شيء ممكن أن يحدث، زال المغصُ فجأةً لكنَّ قلقي ما زال يذرع بي أرجاء بيتي. كان الوقت باكراً ما زلتُ أذكره، السابعة وتسع وثلاثين دقيقة. حماتي لم تجب على هاتفها. رجُلي كان آخر عهدي به إلى الآن ما بين السادسة تماماً إلى السادسة وعشر دقائق. لم يسبق أن تأخر مثل ذلك، عادةً يستغرق مشواره هذا خمساً وعشرين دقيقة، مرةً واحدة فعلها وتأخر عشرين دقيقةً إضافية ودخل عليَّ في الوقت الذي وضعتُ فيه هاتفي على أذني لأكلمه، ابتسم واعتذر لي بأن طبقاً ما فرغ من هذا المطعم فذهب لآخر في شارعٍ خلفي ليحضر الطبق من عنده. صياح مفاجئ. بكاء طفل بالأحرى، فزعتُ إلى الغرفة، تذكرتُه حينما ذكرت لي أمه « حماتي » بأنه في وقتٍ ما ـ يُرجح أنه وقتُ وفاة الأب ـ حين غابت عنهم أخبار الأب ومكالماته صاح صيحةً غريبة اقشعرَّ لها بدنها، كان آنذاك طفلاً لم يتجاوز تسعة أشهر، ثم بلغهم بعد قرابة الأسبوعين نبأ وفاته. أفزعتني جداً تلك الذكرى التي اقتحمتني بجانب طفلي؛ لكنه لم يكن يبكي كما ورد في قصة أبيه مع جده، أعطيته الرضعة ونام على الفور.

هل طمأنني ذلك؟ حين قرنتُ الأمرين ببعضهما؟! ليس تماماً، ظل شيءٌ في أعماقي لا يخبو كما تفعل باقي مشاعري جراء ذلك. المدة التي كانت بين آخر اتصال أجريته ومكوثي بجانب ولدي طالت في نفسي حتى شعرتُ بشيء من الغربة عن تلك التي كنتُها حين آخر اتصال؛ لكن في الحقيقة لم يكن قد مضى سوى ثلاث دقائق حسبما أذكر، استأنفتُ مكالماتي له من جديد؛ لكن هل من جديد؟ الاتصال الثالث تقريباً أو الرابع كان ثمةَ استجابة من هاتفه، رنة واحدة ـ كانت آخر رنةٍ سمعتها من هاتفه ـ ثم عاد مقفلاً إلى يومي هذا، ما الذي كانت تعنيه تلك الرنة؟ استنفدتُ كل الأسباب الداعية

لهذا في مخيلتي، لم أقف على سببٍ يجعلني في غنى عن التكهنات الأخرى. شاشة هاتفي تضيء، كأنَّ أحداً ما بشرني بالجنة وأنا على خطوةٍ من النار. حماتي تتصل. شيء من الخيبة في أن لم يكن هو يخفت في حال أن كان هناك خبرٌ منها. أجيبُ على الهاتف. كانت الساعة حوالي الثامنة إلا دقيقتين، حماتي لا تعرف شيئاً، خفتُ أن تستبطن شيئاً من قلقي فتصيبها نوبة ارتفاع الضغط، لستُ أدري هل كنتُ أبتسم حقاً حينما قلتُ لها بطريقةٍ لطيفةٍ جداً أني توقعت أن يكون عندك لأمرٍ ما؛ خاصةً وأنه تأخر قليلاً فقط.

شعرتُ بجزعٍ شديد، طفقتُ أبكي، لا أعرف ماذا أفعل. حماتي لم تستلطف ما قلتُ أبداً، ظلّت تسألني إلى أن أوصتني بأن يهاتفها حالما يصل. كم يجب عليَّ أن أنتظر حتى أخبر أحداً ما بغياب زوجي؟ كم المدة التي يستحق فيها القلق أن يكون قلقاً اعتبارياً؟! ما عدتُ أحتمل، هاتفتُ أخي، خمَّنتُ أنه وصل الآن مقر عمله بالضبط.

لم يكن لدى حبيبي عملٌ ذلك اليوم؛ ولم يكن موجوداً عندهم حين هاتفهم أخي، حماتي التي لم تكن تنتظر كثيراً انهرتُ أمامها في إحدى المكالمات، لم أسمعها تبكي، كانت تنشج وتقول بصوتٍ متقطع: يا الله عونك. كانت هي - عمداً منا - آخر من يعلم.

سجل بلاغٌ في أحد أقسام الشرطة، بعد يومٍ كامل من غيابه، حسب الإجراءات المعتمدة.

إذن مرَّ يومٌ تامٌ على خروجه، يومٌ تام على آخر أثرٍ له صباح ذلك اليوم: بسمةٍ صافية تنكمش في شفتيه مخذولة حين لم أبادله إياها، قُبلة على جبين صغيري - لم يكن ذلك شيئاً غريباً بالمناسبة حتى أتوجس - فرشاة أسنانه، ريالين بائسين من محفظته كان قد أخرجهما جانباً على خزانة الأحذية، ثم رائحته الزكية العبقة، رائحة جسمه التي وَدَعَها في جوف الشقة كلها قبل أن

يمضي بلا رجعة. آخر تغريدة له في حسابه بالتويتر كانت إعادة تغريد لبيت شعر مقتبس لأحدهم:

وكنتَ كذئب السَّوء لما رأى دماً

بصاحبه يوماً أحال على الدمِ

لستُ أدري إن كان هذا الاقتباس يعنيه في شيء أم لا، خاصةً أنه من محبي الشعر. في مكتبه الذي نفضته أكثر من مرة لعلي أظفر منه بشيء يدلني عليه أو على حاله مجموعة من الدواوين الشعرية الفصحى والعامية، ينكبُّ عليها أياماً حتى أعتقد أنه مدمن قراءة، ثم يتركها أياماً أشك في أنه سيعود إليها. كانت تلك التغريدة قبل ١٦ ساعة من خروجه، لم يشارك قبلها إلى ما يقارب الثلاثة أسابيع حين كانت كل تغريداته تتحدث عن الكرة ونادي الهلال، لكنه ظل ما بين تلك الفترة إلى آخر تغريدة يغرد آلياً بأدعية وأذكار خمس مرات يومياً بعد كل صلاة حتى ما قبل التغريدة الأخيرة بيومين، توقف ذلك التغريد. لماذا؟ لستُ أدري، سؤال يكبر كل يومٍ إلى أن أجد إجابة شافية عن السؤال الأكبر، ذلك الذي يتعلق بمصيره، بروحه فديتها.

مساء ذلك اليوم المكتظ بفاجعتي قاسمتني حماتي وحشة المنزل وأمنية عودته في أي لحظة، لا زلتُ أذكرها جيداً، كانت تأخذ الصغير في حضنها ثم تشمه شمةً حسبتُ بين لحظةٍ وأخرى أن قد فاضت روحه بين يديها، تبكي وأبكي معها، تقبلني، تعانقني، ومن ثم نقضِّي الليل في صلاةٍ وابتهالٍ عسى الله أن يرد القدر بدعائنا، ولسنا ندري شيئاً عن حياته إن كانت باقيةً أم لا. أخوه كان قد جاب الأماكن كلها بحثاً عن شقيقه، المطعم المعتاد، وذلك الآخر في الشارع الخلفي، المقهى القريب الذي يجتمع فيه بصديقه «فرج»، الحي بأكمله، الأماكن التي كان يرتادها عادة في المدينة بناءً على ما أعرفه أنا، المستشفيات، أماكن التنزه، مقر عمله صباح اليوم الثاني قبيل إبلاغه

الشرطة، لعله يظفر بأحدٍ من زملائه يعرف أماكن أخرى يذهب إليها، أو هواتف أصدقاء مقربين، لا أحد يعرف عنه شيئاً، أصدقاؤه، معارفه، أقاربه الآخرون كلهم لا يعرفون. النادل الذي أوصاه أخوه بأن يكلمه ساعة مجيء «فرج» للمقهى، هاتفه ليلتقي بصديقه المقرب هذا الذي تصورتُ لوهلةٍ أنني أعرفه؛ لكنني اكتشفتُ حينما سئلتُ عنه بعض الأسئلة العامة ولم أجد إجابة أنني لا أعرف عنه شيئاً، فقط مجرد مواقف تجمعه برجلي لا غير، معرفتهم ليست قديمة، كانت قبل زواجنا بشهرين تقريباً، لكنه دائماً ما كان يتحدث عن نوع من الصداقة والألفة يختصر أزمنة ومسافات بعيدة حين نأتي بذكر صديقه هذا. لم يكن يعرف هو الآخر عنه شيئاً، تألم كثيراً، وأصرَّ أن يشارك في البحث، لا شيء من الأسرار التي تخصهم تشير بطريقةٍ أو أخرى إلى هذا الحدث.

بمرور الوقت لم أغفل مكاناً إلا تخيلته فيه، خاصةً بعد أن أبلغنا الصحف ووسائل الإعلام، ووسائل التواصل الاجتماعي، أراه مرةً في زنزانةٍ حالكة في مكانٍ لا يعرفه الناس، يزفر كثيراً، وبجانبه كيس الفطور لم يتعفن بعد يتمنى لو يخرج ليشاركنا إياه في أقرب صباح، بكيته مرات وهو غارقٌ في حفرةٍ مجاري، أو مدفون تحت بئرٍ ارتوازية لا أحد يدري به. كنت أموتُ كلما عثروا على تائهٍ أكله الدود في الصحراء، أو جثةٍ جرفها السيل إلى مكانٍ بعيد منزوٍ لا ينتبه له أحد، كنت أتخيله في كل المدن: ـ حينما أسمع بحادثة ما تتعلق بكل من خرج ولم يعد ـ تبوك، جدة، الدمام، أبها، نجران، الرياض التي مشطناها ولم نعثر له على أثر. صديقه « فرج » نشر تغريدةً جديدةً لفقده بعد شهرين ـ لم يبدُ أنه نسيه بعد، شيءٌ غمرني في ذلك الوقت بفرحة غريبةٍ باهتة ـ وضع فيها صورةً له أخرى غير الأولى التي اخترتها من ألبوم هاتفي، بدا فيها متأنقاً مبتسماً كعادته، تتكتل من خلفه لوحاتٌ صغيرة باهتة أعلى الصورة،

طرف منضدةٍ وراءه إلى اليمين قليلاً، كرسي ألمنيوم بأكمله يظهر في الصورة على يساره، بسمته لم تفلح في إبداء غمازتيه، ربما لم يشعر بالراحة كثيراً، هاتفه على المنضدة الخالية، لم يصلهما الطلب حتماً، ترى متى كان ذلك؟ وأين كنتُ حينها؟ وماذا كنتُ أفعل؟

أسترق النظر إلى الهاتف مرةً أخرى، هاتفه، ذلك الشيء الذي شعرتُ تجاهه مؤخراً بحميمةٍ تفوق على كثير مما بقي له في البيت، هاتفه، رفيقه الآن ربما، أو هو الشاهد الوحيد على ما جرى فغاب في إثره، واهٍ ما أوجع هذا التفكير وتلك الانسياقات خلف التفاصيل المضنية التي لا تنتهي.

تحدث الكثير عن احتمالية انضمامه لتنظيمٍ إرهابي، أو جهادي في العراق أو سوريا، وساقوا لذلك الكثير من الأمثلة حين بينت سذاجة ذلك الاحتمال مع ما أعرفه من طباع زوجي؛ لكنني رغم اقتناعي بمنطقية العبث في التحول من الاعتدال إلى التطرف من خلال تلك الأمثلة التي سيقت لنا إلا أنني أعرف بدءاً أنْ ليس له ـ فديته ـ طبيعة عنيفة حتى يمكنه أن يفعل ذلك، رفقه، لستُ وحدي من يؤمن به، إذ كانت حماتي دوماً تحكي لي عنه منذ نشأته.

حماتي فقدت الكثير من وزنها، لم يبدُ عليها منذ غيابه أن نامت نومة معتدلة، تتردد إلينا كثيراً، لا أذكر أن قد مرَّ يومان دون أن تطل علينا، ربما شعرت بشيءٍ من كلِّ أسبابها المنطقية في ذلك التردد أنها قد تعثر على الخبر، أو عليه هو نفسه هنا حيثُ ذهب إلى الغياب. كانت كلما تأتي، تأتي محملةً بأكياس مملوءة باحتياجات المنزل، من سكر، وأرز، وحليب للصغير ومواد تنظيف، ومصروف تضعه في يدي بعد مدة من الحلف بيني وبينها. حماي بطريقةٍ ما جعلهم يصرفون راتبه علينا عوضاً عن فصله وتصفية حقوقه؛ لأنه قانوناً لم يمت، لستُ متأكدة، هناك كثيرٌ من التفاصيل التي أجهلها،

يعرفها الرجال أكثر، لذا لم أكن في حقيقة الأمر بحاجةٍ إلى مصروف، وحبيبي يكدُّ لي باسمه، شاهده الباقي مع طفلي في عالمي الضيق.

أصرَّ أخي أكثر من مرةٍ على أن أقيم عنده، أرفض، يعاود إصراره بلطف، يقول:

ـ إنها لفترة قصيرة، فترةٍ تستطيعين فيها ـ على الأقل ـ أن تجددي حياتك، أن تنظري للأمر نظرةً أكثر تفاؤلاً.

أبكي وأقول له: كم هو مؤلمٌ أن يعود إلى البيت ولا يجدني بانتظاره.

الآن، بعد أن مرت السنة، وقلَّ إصرار أخي، وبحث أخيه، وتغريد صديقه، وبكاء طفلي، وتباعدت زيارات أمه، لم أزل على مكتبه أنفض غباره، أرتب كتبه كما كان يحب، أتفحص بعض كتبه القديمة، أسافر بعيداً مع هوامشه وملاحظاته التي يخطها بيده، أعاود الاتصال بهاتفه ـ كنتُ أتكفل بتسديد رسومه حتى لا تقطع الخدمة نهائياً ـ مقفل كالعادة. أشعر بالراحة جراء ذلك، لستُ أدري كنتً أخشى أن يفتح الخط ويستمر الرنين فيرد عليَّ شخصٌ آخر، شخص يفسد اطمئناني بأنه نائمٌ بجانب هاتفه نوماً هنيئاً، ربما يطول أكثر من ذلك؛ لكن لا بأس طالما أنه هنيء. سيفيق يوماً، متأكدةٌ من هذا.

حدث مؤخراً أن دُعي أخوه ليتعرف على جثةٍ متحللة وجدوها في وادٍ قريبٍ من حينا؛ ولكنه باتجاهٍ لا يسلكه إلا من يريد السفر غرباً، لم يتعرف عليه. تحدثني حماتي عن أخيه، كان يقول إنه ربما يكون هو، لا يدري أصبح لا يثق في نفسه بعد أن فقد أخيه، عرض على أمه أن تفعل، تلكأت، اختصر الوقت وطلب تحليلاً جينياً ليتم التعرف على الجثة إن كان أخاه أم لا. انتظروا النتيجة، أما أنا فكنتُ أنتظره هو.

حماتي تتصل، الساعة العاشرة وإحدى عشرة دقيقة صباحاً، أجيب بسرعة حتى لا أوقظ صغيري، أخرج خارج الحجرة، أقترب من الصالة، بدا على صوتها وقارٌ؛ لكنني لم أكن متأكدة أوقارٌ هو أم أثر بكاء، شيء من الجزع أصابني حين سألتها عما إذا وجدوا محفظته؟ ـ كنتُ قد رأيتُها في المنامِ ـ لم يجدوها. النتيجة ظهرت، لم تتم آخر حرفٍ حتى سمعتُ جرس البابَ يرن، انتظرتُها تتحدث، لا أذكر جيداً إذا كانت قد حمدت اللهَ فعلاً كما قد تبين لي لحظتها، وإذا كان كذلك فبأي طريقةٍ قالتها؟ الجرس يرن مرةً أخرى، غائبي كان يضرب الجرس ثلاثاً، ثم يبدأ بطرق الباب إذا لم يجد رداً حين ينسى المفتاح هنا، حدث ذلك غير مرةٍ، حماتي طلبت مني أن أنتظر قليلاً لتحدث ابنها، صحتُ فيها، لم تبالِ، أسمعها تحدثه، اقتربتُ من الباب في هذه اللحظات، رن الجرس للمرة الثالثة، سألتُ: من؟ لا أحد يجيب، بدأتُ أشعر بتوجس، ابتعدتُ قليلاً عن الباب، ثم عدتُ إليه بأطراف أصابعي حتى لا يشعر بذلك، حماتي تتحدث وابنها مع شخص آخر، على أطراف أصابعي أتطاول لأرى من فتحة الباب، ظهر رجلٌ مدنياً رأسه، لم تكن ملامحه لتكون واضحة تماماً، لا يضع عقالاً على غترته، حماتي في الجانب الآخر عادت تحدثني، عدتُ إلى الصالة جزعةً، سألتها ـ أصيح ـ: هل كان هو أم لا؟ نشجت حماتي، هل كانت تبكي؟ أم ماذا؟.. الباب يُطرق هذه المرة، يا إلهي، تسللت نحو الباب لأعاود النظر مرةً أخرى، رفع رأسه قليلاً، رأيته، حماتي تنهي المكالمة. تُرى ما الوقتُ الذي أحتاجه فيما بعد لأقلق من عدم عودةِ أحدٍ ما يهمني أمره: سنة؟ اثنتان، ثلاث، عشر، أم إلى الأبد؟! وطفقتُ أبكي.

نُصب الشاعر

أصبح هذا اليوم وقد بلغ ٢٨٧ يوماً دون أن يقول بيتاً واحداً من الشعر، أو أقصر من ذلك كجملةٍ شعريةٍ تحتمل ـ على الأقل ـ إيقاعاً خفيفاً، يبتدئ منها إلى سكرته تلك التي عهدها من قبل؛ لكنه أفرط في هاجسه هذا، أو ألمه على وجه الدقة من أنه لا يكاد يستطيع أن ينظم شيئاً من الشعر؛ ومن ثم فهو «لم يعد شاعراً». تلك الجملة بالتحديد تشعره بالخزي، ذلك الخزي الذي يلحق بالشريف حين يقعد لسببٍ ما عن فضيلة يتسابق إليها الأكارم.

مؤخراً أشفق على نفسه كثيراً، كلما تعرض لها ـ بتلك الجملة السالفة ـ في غمرة حديثٍ له مع أحدهم، أو خلوةٍ يتأمل فيها ثم لا يخرج منها بشيء، أو كلما تغافلت نفسه عن تلك الفكرة التي يطرقها بين آنٍ وآخر. من الصعب حين يعبدك الناس كإله أن تتكشف لهم في مواضع غير مركبة مادتك البشرية. هكذا يرى الناس الشعراء، وهكذا يعتقد الشاعر نفسه.

لم يسبق له أن مرَّ بانقطاعٍ كهذا، ولم يسبق له أن شعر بتوجسٍ مثل هذا. تذكر أنه منذ الأربعة والعشرين عاماً الذي قرض فيها الشعر، لم يحدث أن تطاول البين بينهما مثلما هو حاصلٌ الآن، أجل، تمر على الشاعر فتراتٌ أهون له فيها أن يخلع ضرسه على أن يقول بيتاً واحداً من الشعر كما قال الفرزدق؛ لكنها عارضة، طارئة، ليس من المنطق أن تطول، كانت أقصى مدةً عرض له فيها ذلك الجفاء قرابة التسعة والعشرين يوماً، لم يحدث من قبل أن انتصف نهار الثلاثين إلا وقد استهلَّ القصيدة بما لا ينقص على ستة أبيات؛ لكن الأمر هذه المرة مختلفٌ تماماً، الأمر ماضٍ إلى ما هو أبعد وأطول من ذلك، كما أن

تلك الحالة المزرية البديلة التي تلتبس الشعراء أثناء انقطاع الوحي عنهم، والتي تثبت بطريقةٍ أو أخرى ـ بالرغم من ركاكتها وحوشيتها ورداءتها ـ أنهم شعراء ما دام ذلك الإيقاع يرتبط بذواتهم أكثر من ارتباطه بكلمةٍ، أو جملة، أو مقطع، أو بلحنٍ موسيقيٍّ عالقٍ في أغنيةٍ خالدة؛ لم تلتقِ هي الأخرى به، لم تثبت شاعريته، ليتها كانت تشهد على ذلك. أريدُ شهادةً ما، لم أعد أحتمل. يردد ذلك كثيراً هذا الصباح، لم يكن قد رأى مناماً، أو لم يتذكر ـ بالأحرى ـ أنه رأى شيئاً في منامه، لكنَّ شيئاً ملحاً منذ أن استيقظ من منامه يفعل به ذلك، يفقده صبره. الأمر بلغ حداً لا يطاق، هكذا همس حينما مررَّ يديه مما يلي فراشه ليعرف الوقت من هاتفه فجر هذا اليوم. كان قد دعي في هذه الفترة إلى أمسيات لها حجمها الثقافي: بعضها من دول مجاورة، رفض المشاركة فيها كلها ـ كُنَّ خمسَ أمسيات ـ عدا واحدة قبلها بعد ترددٍ كثير، حثه على ذلك صديقه المقرب الذي لم يكن شاعراً، وابنه الوحيد، وأمُّ ابنه حينما بعثت له برسالةٍ مع ولدها، كانت بالأصح توده أن يفعل ذلك؛ لأن الابن كان يحمل هم أبيه وأرقه، ولم تكن تحب أن ترى ابنها يزورها بين الوقت والآخر بوجه أبيه الكئيب. أصدقاؤه الشعراء لم يكونوا أكثرية، كانوا ثلاثةً أحياناً، وأخرى اثنين لا أكثر، وفي بعض المرات يجد نفسه وحيداً إذا جلس على طاولة المقهى في اجتماعهم الشهري المعتاد في مكانٍ هادئ جداً وسط المدينة. وكانوا رغم ذلك في كثير من الأحيان لا يقولون شعراً، ولا أدباً، ولا حتى شيئاً يبدونه لرابط آخر ـ غير الشعر ـ يجمعهم. يعرف بالتأكيد حين قبل أن يشارك في تلك الأمسية ألا أحد منهم في حال أن كان موجوداً بالطبع أن يعطيه رأياً واضحاً، لا أحد منهم يتسع وقتُهُ لمثل هذا، فضلاً عن أنَّه كان يبحث في تلك المشورة عن شيء من الحميمية التي يفتقدها بالتأكيد معهم، ومع كل شيء، عائلته، صديقه، زملائه، معارفه، مع مكتبه الذي كان يتقلب على سجادته في إحدى أكثر أعراض مخاضه الشعري ملازمةً له، مع نفسه

كذلك التي يشعر أنها انفلقت اثنتين، واحدةٌ حينما كان شاعراً، والأخرى هي هذه التي يذرع بها آلامه التي لا تنتهي على مد البصر من وقوفه في أي مكان. كان لا يشعر في نفسه الثانية تحديداً بأي انتماء إلا ما كان ينبعث بين فترةٍ وأخرى من رائحة تلك حين يلوك فمه شيئاً من الأبيات التي قد قالتها، وكان هذا بالأحرى السبب الأكبر في أن يقبل المشاركة في تلك الأمسية. كان يعتقد أيضاً ـ فضلاً عن البحث عن الانتماء ـ أنه من الممكن أن تسترد قريحتَهُ تلك العلاقة الوطيدة بينه وبين جمهوره، في ذلك المكان الذي لا يعتقد أنه يليق بغيره، كان قد ردد تلك المقولة في الصحف، إبان احتفاءٍ إعلامي كبير بديوانه السادس والأخير: « نائماً تحت ظل السرو» بأن الشاعر الفذ لا يؤمن بأستاذية شاعرٍ عليه.

يتذكر تلك الليلة؛ لأنها الأخيرة ربما، كيف كان حضوره على المسرح؟! كيف كان تفاعل الحضور؟! رغم أنه لم يقل شيئاً جديداً، استعان بمسودتين من نصوصه القديمة التي لم يرغب حينها أن تنشر ليلقيها أثناء مطالبة الكثير من محبيه بالجديد، كيف بلغ الانسجام بينه وبينهم؟! حتى أنَّ الشاعر الآخر في الأمسية بات غير مرئي بجانبه، عادةً كان لا يتمنى أن يحدث مثل ذلك في الأمسيات، كما أنه في تلك العادة لا يحب أن تكون الأمسية أي أمسية يقيمها بمشاركةِ أحد؛ ولكنه لما كان في حاله هذه، وقد بلغ ما بلغ من الجفاف والقحط، قبل أن تكون بالمشاركة حين لم يكن يُعرض عليه غير ذلك؛ في الوقت الذي لم يعد يعرض عليه الكثير من الدعوات. كلهم تمنوا أن يسترد قريحته إذ ذاك، هو، ابنُه، صديقه الذي لم يكن شاعراً، أم ابنه، أحد المعجبين من جمهوره الخاص، كان مشرفاً على صفحة شعرية أنشأها باسمه في الفيسبوك، قبل أن يتعرف عليه صاحبنا ويعرض عليه دمج صفحته الشخصية مع هذه؛ خاصةً أن عدد المهتمين والمتابعين لصفحة المعجب

ضعف عددهم في صفحته الشخصية عشرين مرة، قبل المعجب بذلك؛ لكنه طلب ثمناً يشتري به شاعره منه تلك الصفحة، كان ثمناً معقولاً؛ إضافةً إلى أنه اشترط أيضاً أن يمنحه حقوقاً حصرية، كالإشراف العام على الصفحة، تنسيق بعض نشاطاته فيها، نقل شيئاً من أخباره الشخصية التي يجب أن يطلع الجمهور عليها في حساب هذا الأخير بتويتر، تسجيلات صوتية بمرافقته. لم يكن ليرفض، كان هذا إغراء بالنسبة له مع شهرة صفحته تلك التي يديرها المعجب، كما أنه بذلك كان يشعر بمداعبةٍ ما لغروره، كما لو كان سيداً يتولى عنه خادمه ومولاه أكثر شؤونه. كان هذا المعجب الذي أصبح مع الوقت تلميذاً له يتردد عليه بين فترةٍ وأخرى، يتصل عليه، يسأله، يطلع على أخباره، يتجاذب معه في بعض الأحيان بعض أحاديث عن الشعر والشعراء، لم يكن ليتنازل عن كبريائه ليسمح لمعجبه بصحبة، أو بصداقة؛ لكنه رغم ذلك تنازل له عنها في لقاءين يتيمين جمعهما في بهو أحد الفنادق الفخمة. كان يمارس بذلك ـ قطعاً ـ فوقيةً ترضيه وتعوضه عن ذلك التنازل. حين لم يجد المعجب من أستاذه في الفترة السابقة أي ردٍّ لمكالماته، لرسائله، هاتفَهُ من رقم مجهول، أجاب؛ لكنه حين عرف صوته، بدا كشعلةٍ نار تتحدث، لم يترك لفظاً نابياً، سبةً مقذعة، أسلوباً مقززاً، كان معجبه على الطرف الآخر صامتاً تماماً كالهاتف الذي يحمله، الطريف في الأمر أنه سأله عما إذا كان ما زال موجوداً معه على الخط حين ظنَّ أنه قد أغلق الهاتف، خاب ظنه، تلعثم، شعر بالحرج، استأنف كلامه بصوتٍ تتخلل سكناته وحركاته الحسرة، الخيبة، أخبره بأمره، ثم اعتذر وأغلق الهاتف.

لم تكن قريحته لتبعث من جديد، كما تمنى هو، ومن يهمهم أمره، حتى صباح هذا اليوم، حينما استيقظ متمتماً ببعض التعبيرات التي تنم عن افتقاده للصبر، ولأمله في عودته هو، يشعر في كثير من الأحيان أنه والشعر شيءٌ

واحد، لا يمكن أن ينفصلا، لا يمكن أن يغيب أحدهما دون الآخر. فكر حين طلب من الخادمة أن تصنع فطوراً أن يتصل بمعجبه الوحيد، الباقي فيما يظن، أو فيما أملته عليه الحالة التي يعيش فيها، ويخبره بقرار اعتزاله الشعر إلى الأبد، لينشره في صفحته. لم يعد لدي ما أقوله، هكذا ردد. فترة النقاهة التي كان يمططها بأحلامه، تحولت إلى مرحلة أخرى لا علاقة لها بالشعر. معجبه كان خلوقاً للحقيقة؛ لأنه كان من الممكن بعد تلك المحادثة، أن ينقطع عنه، أو يلغي صفحته، أو ينشر ـ على أقل تقدير ـ خبر الانقطاع الشعري عن أستاذه، ليحصل بدوره على السبق الذي سيهز الوسط الأدبي بكل تأكيد. كان من الممكن حينها أن يخرج في اتصال صوتي لأحد البرامج، أو تصريح صحفي ينفي فيه تلك الشائعة ويعد الجميع بقصيدةٍ صماء؛ لكنها الحقيقة التي تأخر ـ لحكمةٍ أو رجاء ـ في أن يعترف بها لنفسه قبل أحد.

أثناء فطوره، اتصل لا إرادياً بصديقه الذي لم يكن شاعراً، شعر بشيءٍ يلح عليه في أن يبوح لصديقه عما ينوي فعله، أو أن يشاركهُ أحد في حمل هذا الوزر، الهم، الموت الذي يتجدد دائماً كل يوم. صديقه على الطرف الآخر يتعجب، ويندهش بطريقة تبدو غريبة بالنسبة إليه، يعده حين يأتي إليه بمفاجأة جميلة. أرجأ الأمر لحين ذلك.

المفاجآت بالنسبة إليه أصبحت أشبه بكتابٍ للعروض، لا يستطيع أن يبتهج بمعرفته فيه، وهو لم يعد يُحسن أن يصنع من ظلِّ معرفته تلك بيتاً واحداً، أو بعض بيتٍ يأويه من الهاجرة التي تلفحه كلمّا عنَّ له هواءٌ ما.

أما ظننا بأن الورد يُبهجنا

ما بالنا إن شممناهُ.. بكيناه؟!

ينظر إلى صديقه الذي لم يكن شاعراً، ويتأمل قليلاً في الأعلى، يعود ينظر

في هاتف صديقه، يقرأ، لا يكمل، يشعر بالكلام، يسأله صديقه: ما رأيك؟ كان ابتسامته تتسع. لمحه لحظة ثم قال: جيد، أخشى أنها لن تكون مفاجأة لو قلتَ إن هذا كان لي.

بحث في دواوينه الست، لم يجد في صفحاته كلها هذا البيت، بحث في مسودَّاته، نفض مكتبه، غرفته، بيته، صفحاته في مواقع التواصل، المنتديات التي كان يشارك بها، مكتبه في العمل، لم يجده أبداً، هذا المعنى الذي تذكر لوهلةٍ أنه كان في رأسه آخر مرةٍ، قبل أن يفقد القدرة الكلية على الإتيان بتلك الصنعة التي كان يجيدها. لم يكن من الأمر بدٌّ، البيت لصديقه الذي لم يكن شاعراً، كما أقسم عليه بالأيمان المغلظة أنها له، لم ينتحلها، فجأة فزع من نومه، وجد نفسه يردد هذا البيت، وآخر، سجلهما في ملاحظات هاتفه، ثم أكمل نومه. بغتةً نزل عليه الإلهام. يحدث ذلك، لا ريب أنه يحدث. بارك لصديقه هذا النبوغ، كان يضحك باكياً حين حدثه بذلك في المساء، يقال للذي يقول الشعر فجأة بعد أن يبلغ الأربعين عاماً، نابغة، أنت كذلك يا صديقي. هنيئاً لك الشعرُ. البيتان اللذان قرأتهما رائعان، تمنيتُ لو أني كتبتُهما. فيهما من الأسلوب الذي كان لي في الشعر من قبل. اعتقدتُ ـ إن كان هذا جيدٌ بالنسبة إليك ـ أنهما لي لوهلةٍ.

في صباح اليوم التالي بارك له صديقه الذي أصبح شاعراً قرار الاعتزال، ونصحه بأن يستعجل به، لا يركن لهذا الضياع، وبأن يجد نفسه في رواية، أو قصة، أو رسالة، أو خاطرة، فلتجرب النثر بأنواعه، اطرقه، أنت لست مبتدئاً، تحمل خبرةً جيدة في الشعر، والأدب بابه واسع.

حينما فرغ صديقه الذي أصبح شاعراً من نصيحته، قرأ عليه نصه كاملاً، زاد على البيتين ليلة أمس ٢٤ بيتاً. يا لها من قريحة ثرة حقاً. لم يكن يملك أيام مجده ما ينهي به قصيدةً في يومٍ واحدٍ بهذا العدد من الأبيات. ربما يكتب

مقطوعة لا تتجاوز اثني عشر بيتاً، متدفقاً، مترابطاً، لا يحمل صوراً كثيرةً أو جديدة، كان يحتاج أسبوعاً كاملاً على الأقل كي يأتي بنصٍ تتناوب على جماله وعذوبته صورٌ زاهية، ومعانٍ بديعة مرصوفة، ولغة كطائرٍ يحلق عالياً، وتراكيب متدفقة، سهلةٌ ممتنعة. أمَّا نص صديقه فيعرف في قرارة نفسه أنه مدهش، تكمن قيمة دهشته في أنه نصه الشعري الأول، لم يكن يعرف من قبل لا وزناً ولا قافيةً، لم يكن يعرف من الشعر إلا ما كان يلقيه عليه صديقه الشاعر. هل هذا هو النبوغ حقاً؟ ربما، لا يحبذ أن يسأل صديقه عن هذا، لأنه لا يدري هو نفسه كيف أصبح شاعراً بقريحة فذة. لا يليق الشعر بهؤلاء، كيف له أن يمتهن نفسه عندهم؟!

اتُهم بعد أيامٍ من نشر صديقه الذي أصبح شاعراً للقصيدة أنه مراوغ، لم يعتزل، النص له، طابعه معروف، قال أحد أصدقائه الشعراء الثلاثة، الذين لم يكونوا ثلاثةً دائماً، أنه يحاول أن يصنع صنيع فرناندو بيسوا، حين أوجد ريكاردو ريس، وألفارو دوكامبوس كبدائل يكتب بأسمائهم. لم يرد على اتصالات صديقه البديل أو الذي أصبح شاعراً، المستاء بالتأكيد. حاول ألا يعبأ بكلامهم. لم يعد يجدي أن يتحدث بأي شيء، أو يفكر بأي شيء، نام بهدوء مساء ذلك اليوم، كانت المنامات التي تكالبت عليه في فترة الانقطاع الشعري، أشبه بالهلاوس البصرية، الأشياء التي يقع عليها بصره ليست ثابتة، الأصوات لا يتضح منها سوى القليل، والقليل هذا لا يكاد يعني شيئاً: فلانة جميلة، كن بجانبي، ماذا ستفعل؟ سوف أضربك يا ابن الفاعل، كلكم ملاعين. الصوت صوته، لم يشعر أنها تعني شيئاً.

في منتصف نومه، سرت في جسمه نفضة سريعة كعرق برقٍ مضيء، فتح عينيه، كان محموماً أو معروقاً، ينتفض، غمامةٌ بيضاء تهبط عليه تدريجياً من سقف الغرفة، كانت تتشكل بأشكال غريبة، اقتربت منه أكثر، علته

تماماً مطبقةً عليه، كان يظهر من جنبيها جناحان شفافان، ثم يتحول ذلكما الجناحان إلى قرني شيطان، لم يتفق له أن عرف ذلك أبداً فيما بعد، خبط ذلك الشيء أو خفق برأسه، لم يزل نائماً رغم أنه فتح عينيه. في صباح اليوم التالي، لم يجده ابنهُ والخادمة على فراشه، وجدوا قصيدةً طويلة، لم يتفق لهم أن يستطيعوا قراءتها أبداً، كانت الأسطر متداخلة لا تثبت، والمصراع الأول يعلق بالنظر، كلما تجاوزتَ مكانه لتقرأ العجز، أو البيت الثاني، أو الذي يليه أو الأخير.

الرجل الذي يتعقبه الظل

ابتداءً من اليوم الرابع وثمة ظلٌّ يمشي معه على جدار غرفة المعيشة بمنزله، اكتشفه حين انحنى ليلتقط جهاز تحكم اللاقط «الرسيفر» من الطاولة، شيءٌ ما لفت انتباهه جهة الحائط، جذبه لبضع ثوانٍ خارج لحظته تلك. الأسوياء يألفون ظلالهم؛ لذلك كان نادراً ما ينتبه لظله. لم يحدث أن غدا ظله غريباً فيما وقع عليه نظرُهُ لحظةً إلا حين يكون مرتاباً، أو خائفاً. كان يشتهي أن يستلقي على الأريكة ليكمل مشاهدة فيلم وثائقي عن حادثة اعتداء مراهقين على فتاةٍ تتنزه في حديقة. شيءٌ ما في الظل كان خاطفاً أكثر من لحظة انحناءه ثم استواءه واقفاً. حين لم يرَ سوى ظله في الجدار، أحكم إسدال ما تبقى من الستارة على باب النافذة الثاني، ثم استلقى على الأريكة محاولاً طرد تلك الفكرة الوليدة والاندماج في قصة الفيلم أمامه. كان يفضل أن ينام هنا بينما يشاهد العرض عوضاً عن أن يفعلها في غرفة نومه حيث يجتاز غرفة المعيشة، الممر، الصالة، ثلاثاً وعشرين درجة مفضية للطابق العلوي. مجرد التفكير في ذلك كان كافياً ليجعله يغوص أكثر في حشو الأريكة القطني.

مع إغلاق الستارة وإضاءات الغرفة لم يبقَ للظلِّ مكانٌ لو وجد سوى ما صنعته شاشة التلفاز بشعاعها الخافت من خلفه. الآن فقط تأكد أنه لن يظهر على الحائط ذاته مرةً أخرى أي تهيؤٍ من نوعه.

حين أفاق من قيلولته، ظنَّ أنَّه نام طويلاً، سلسلة الأحلام التي رآها في منامه، والتي بعثت فيه مزيداً من الشعور بعدم الارتياح كانت أطول لو تحققت من الخمسة والأربعين دقيقة التي قضاها نائماً. الفيلم الوثائقي تحول

في التلفاز لبرنامج اقتصادي. نهض متثاقلاً، تذكر أنه سمع أذان العصر في الحلم؛ لكنه لم يحن وقت الأذان بعد، أضاء مصباح الغرفة، حين اقترب من الباب ليخرج لمح ظله علي الجدار المقابل للمصباح المضاء؛ لكنه حين خرج من الغرفة فعلياً بقي الظلُّ مكانه. ضحك بصوتٍ مسموع وهو في الحمام من تلك الترهات التي تعترض حياة الإنسان خاصةً حين يكون وحيداً، خطر له هناك أن يعد قهوةً ليعدل بها مزاجه، ومن ثم ليرى ما النشاط الذي سيمارسه بقية اليوم. حين أراد أن يشعل الموقد لم يجد الولاعة، بحث عنها في المطبخ، تفقد أكثر الأماكن التي نسيها فيها أكثر من مرة: طاولة الطعام التي لم يأكل عليها منذ ما يقارب السنة، فوق الموقد الكهربائي المهجور، سلة الخبز. وجده في نهاية البحث ساقطاً تحت الطاولة عند قائمة أحد الكراسي الداخلة. عاد إلى غرفة المعيشة حاملاً كوب القهوة، كتم صوت التلفاز، نقر على شاشة جواله لتنطلق أغنية حزينة لكاظم كوينجو، كان قد بدأ يفهم بعض كلمات الأغنية من حديثه مع أحد الحلاقين الأتراك، أسند رأسه على الطرف الخشبي للمسند وحدَّق في السقف، السلك المجرد الذي كان يوماً ما ثريا تنير هذه الغرفة، حبس دمعة حارقة، وارتشف من الكوب، للوهلة الأولى ظنَّ أن الظلَّ الذي عن يساره خلف التلفاز ظله؛ لكنه حين ظلَّ يحدق ممسكاً بكوبه وجده أكبر منه، نهض من مكانه ليتأكد من ذلك الحجم، تملكته الدهشة حين اتخذ الظلُّ شكلاً هلامياً. ابتسم متشككاً ثم تحرك يميناً لينشطر الظلَّ بعد ذلك، تصلبَّ مكانه ليستوعب الأمر، لم يعد هناك ظلٌّ واحد على الحائط، بل اثنان، حين ابتعد يميناً أيضاً تحرر الظلُّ الثاني ليرافقه الأول، عاد للطاولة ليمسك بالكوب وهو يرمق هذا الهراء على الحائط، حين عرف ظله منهما، لم يعد يلقي له بالاً، بقيت أنفاسُهُ محصورةً على الثاني، ذلك الظل الذي يبدو باهتاً على الحائط، كان واقفاً على الأرجح. عدل عن انحناءته ليجلس مكانه الأول، بقي الظل واقفاً كما هو. أغلق هاتفه. استعاذ بالله وبسمل، لكن لم

يكن الظلَّ ليتزحزح، تفقد ظله هو، كان جالساً جوار ذلك الظلَّ. استشعر جلده، أخذ كوبه بكل هدوء وأقفل التلفاز، وخرج يذرع الممر والصالة متجهاً إلى حجرته بالطابق العلوي، على أعتاب الدرجة الرابعة تذكر أنه نسي جواله هناك، شعر بالفزع، الفزع الذي يشد من عضلاته، يجري بهواءٍ باردٍ في عروقه، يمغص بطنه، يضغط على فقرات رقبته أيضاً في لحظةٍ واحدة. عزم على الرجوع دون أن يترك مجالاً للتفكير، كان خوفه من تمكن جزعه عليه شجاعة مؤقتة فقدت القدرة على الاستمرار حين وقعت نظرته على إحدى ذراعي الظل وهي تلوِّح لشيءٍ ما، فرَّ بهاتفه صافقاً بالباب رغم تحرزه من أن يفعل ذلك؛ لكنه كان مشوشاً أكثر مما يعتقد.

الأمان الذي كان يسعه منزله عن كل ما هو بالخارج، بدأ يضيق حين فقد سيطرته على غرفة المعيشة، ليرتكز بالأعلى حيث غرفة نومه التي كان يتحاشى المكوث فيها أطول من مدة نومه القلق خلال الثلاثة أيام الماضية. القهوة لم تكن لتعني له شيئاً الآن، فقد أصبحت باردة كفرحةٍ مهملة، تفقد جدران الغرفة بعد أن أضاء المصابيح جميعها، ليس هناك شيءٌ غير ظله الذي يكاد يتوارى.

السرير لم يكن مرتباً منذ استيقاظه، تكومَّ اللحاف على جانبه الأيسر بعيداً عن الوسادة، الوسادة الأخرى ليست في مكانها للشخص الآخر المحسوب في السرير، بل انزاحت حتى المنتصف بشكل عمودي، كان يضعها بين ركبتيه وهو نائم أحياناً، ومرات كان يحتضنها بجانبه. باب خزانته لم يكن مغلقاً تماماً، بدا كمُّ أحد ثيابه واضحاً. الباب الآخر لم يكن يخصه، ولم يكن ذلك سببٌ كافٍ حتى لا يعيره اهتماماً في تلك اللحظة. لا يدري بِمَ يشعر إضافة لإحساسه بغرابة ما يحدث؟! ليته يعرف إن كان ذلك حقيقياً أم وهماً بدأ يلاحقه؟ خطر له أنَّ إجابة هذا السؤال تحديداً تعني الكثير وستساعده في

إيجاد الحل المناسب، من المهم أن يفكر بصورة منتظمة. صحيح أنه لا يملك ألا يشعر بالخوف أبداً؛ لكن عليه ألا يسمح لذلك الخوف بأن يقيده عن التفكير والتركيز. أثناء ذلك سمع صوتاً من الغرفة المجاورة، غرفة الأطفال، اندفع إليها قبل أن ينغمس في تلك الأفكار، لا شيء غير الخيمة الصغيرة المنتصبة المكتظة بحباب الكور، دراجة صغيرة ذات ثلاث عجلات، جلاسة رضع منصوبة كأرجوحة في الركن المقابل للخيمة، صندوق المسبح المائي الذي اشتراه منذ بضعة أسابيع، وظله الحائر يدير رأسه في أرجاء الغرفة الصغيرة. انتظر قليلاً حتى يتبين مصدر الصوت، لم يكن ثمة شيء. حين هم بالخروج عاد ليفتح النافذة عبثاً لعله يجد تسويغاً ما؛ لكنه لم يكن سوى صوت الظهيرة حين تستقبل العصر، أثناء إغلاقه إياها صدحت المساجد المحيطة بأذان العصر، وجدها فرصة مناسبة للخروج من البيت والعودة في الليل للمبيت فقط.

حين استيقظ في اليوم التالي، خشي أن يقتصر مكوثه في البيت على المبيت فقط، تفكيره المضني فيما حصل بالأمس يرهقه، يشعره بالفتور، يعجز عن النهوض بشكل طبيعي، كان قد ألف كل يوم جمعة أن يتغدى في بيت أبيه، افترض أن ذلك قد يبعث فيه شيئاً من النشاط؛ لكنه لم يستطع أن يحدد رغبته حقاً في أن يفعل ذلك أم يضيف غيابه إلى المرات القليلة التي لم يحضر فيها. يستطيع أن يتذرع بأي سبب؛ لكنه لا يرغب في الانقطاع عن الزيارة لهذا اليوم.

فعل كل ما بوسعه أن يفعل بين الأذانين: اغتسل، لطخ ملعقتي جبن على وجه نصف رغيف، لبس أحد ثيابه النظيفة ـ هو الذي كان قد بدا كمه من الخزانة بالأحرى ـ تعطَّر برائحة فرنسية ممزوجة بالخزامى والبرغموت أهدتها له أخته بعد عودتها من آخر سفرة، دخل غرفة المعيشة بلامبالاة،

أطفأ الأضواء التي كانت مضاءةً من الأمس. أشغل التلفاز، تجنب أن ينظر إلى ظله الحقيقي الذي تشكل يمينه على الحائط، في هذه الغرفة تبدو الأشياء المألوفة وكأنك تراها لأول مرة، ذلك الشعور الغريب الذي انتابه فيها دفق في تعابير وجهه صرامة بدت بالنسبة إلى طواعيته الداخلية كقشرة رقيقة، لا يريد مزيداً من الترَّهات، مزيداً من الولوغ في فكرةٍ مثل ذلك، وضع على قناة القرآن الكريم، رفع الصوت إلى المنتصف تقريباً، ثم خرج متردداً بين أن يترك الباب مفتوحاً أم يغلقه، استقر في نهاية الأمر على إغلاقه متحاشياً بعينه أن يقف طرفها على ذلك الظل الذي مكث بجانب التلفاز ينحني ليتناول شيئاً من ظل الطاولة المنعكس.

عاد في المساء ليستبدل ثوبه بلباس أكثر راحة ليخرج مع صديقه الوحيد ـ الذي لا يفرغ كثيراً ـ لأحد المقاهي الفارهة الواقعة في شرفة أحد أكبر الأسواق في المدينة. كان صوت المقرئ يصنع هيبةً أخرى لما يحيط بغرفة المعيشة. أنار المصابيح كلها، لهج بدعواتٍ بسيطة وهو يصعد السلم، يعرف فضل آخر ساعة من نهار الجمعة. ارتمى على سريره قليلاً بعد أن خلع الثوب، غطى وجهه بكفيه وتمتم بما حفظه من أدعية مأثورة. صوت طفل يبكي يشتت تركيزه، يثير مخاوفه التي ربما نسيها للحظة، كان لدى جيرانه أطفال يصله بكاؤهم وصياحهم ومشاجراتهم أحياناً كثيرة، ظنَّ ذلك بادئ الأمر، لكن البكاء هذه المرة كان يصدر من طفل واحد، وحيد غالباً، عالق في مشكلة. الصوت لا يأتي من النافذة، الصوت داخل منزله بالأحرى، تبع إحساسه، كان بالأعلى ناحية سطح المنزل، خفت الصوت تدريجياً كلما صعد درجة للأعلى. باب السطح مغلق دون مفتاح. اقتحم السطح، ظنَّ شيئاً غير سويٍّ، الصوت لم يعد له أثر، جال في أرجاء السطح دون أن يجد إجابة.

صبيحة اليوم السادس تحرر الظلُّ الغريب الباهت من غرفة المعيشة

المغلقة إلى داخل المنزل، التقاه أولاً في المطبخ عندما كان يشرب كوب ماءٍ على ريقه، كاد يشرق، كان الظلُّ كأنه لا يعبأ بوجود هذا الرجل، مالت أذرعه تتحرك قريباً من حوض الغسيل، كان يفرك شيئاً ما على الأرجح، تبين له بعد أطول ثانية قضاها في عمره أنه ربما كان يغسل الصحون. هرول ناحية غرفة المعيشة، فتحها، لا شيء يظهر، ظله فقط كان يتوارى خجلاً بعيداً عن عينيه، القناة في لحظات وقفةِ الآن، لم يغلق الباب هذه المرة، عاد إلى المطبخ، شعوره بالانقباض حتم عليه ذلك، الظلُ ما زال مكانه وادعاً يغسل، يدير يديه على صحن دائري كبير تقريباً، صاح هذه المرة باسم الله، مسامات جلده تتكور ثم تنفر من مكانها على شكل بثور، لا شيء يتغير، ظلٌّ صغير يصعد معه الدرج، كان يظنه ظله، لكنه ما لبث أن تحقق منه حين اتجه لغرفته مفترقاً عن ذلك الظل الذي أكمل صعوده للسطح. صوت الطفل إياه بالأعلى عاد ليشق مسمعيه. الأمر مثير للريبة، المنزل يمر بوضع غير آمنٍ، كان يخاف دائماً أن يفقد وعيه نتيجة وعيه الذي يعتقده يزيد حدةً عن اكتفائه الطبيعي للإدراك الذي يجب أن يتحلى به. لم يعد يشعر بالعزيمة ذاتها التي صعد بها إلى السطح بالأمس. افتقد لشيءٍ غير قليل من الحيوية التي كان يقاوم بها الصعوبات الحقيقية التي تعترضه والهواجس التي تثخنه بالقلق والخوف من عدم تجاوز الأمر أبداً.

عصراً اقتحم منزله مع راقٍ واثنين من مساعديه كانا يحملان جوالين مياه وعلبة ملح مخلوطة بزعفران، لم يجد جرأةً ليحدث أهله بما ظنَّ أنه يحدث له حين زارهم بالأمس؛ لكنه بعد أن خرج من منزله اليوم مضطراً اتصل بأخته ليسألها عن رقم راقٍ كانت قد أرسلته مرةً له حين شكا لها من اكتئاب ممض لا يفارقه، أخبرها بما يحدث في بيته لما سألته، فهاتفت بدورها زوجة الراقي لتخبره بالمصيبة التي حلت في منزل شقيقها، ودعته بعد أن تتم مهمة

غسل المنزل بمياه الرقية والملح أن يمكث عند أبيه أياماً ريثما تسكن رهبته من البيت.

لا يدري هل كان من الأجدى أن يفعل ذلك؟ هل كان خاوياً للدرجة التي يفقد إيمانه بالمفاهيم التي كان يعتقدها؟ ظلَّ يتساءل بخيبة جديدة وهو يكاد يختنق في بيت أبيه عن الحنين الذي يشعر به الآن لغرفة المعيشة خاصة. سماعات الجوال في أذنه تدندن بأغنية أخرى لذلك الفنان الذي مات شاباً، تمنى لو استأجر جناحاً مفروشاً صغيراً بالقرب من منزله. الغربة التي كان يدثر بها بدنه، ويعمِّمُ بها رأسه، ويمزجها بشيءٍ من زفراته الموجوعة كانت أكثر ألفة ورحمة به من هذه التي جعلت من الهواء المجرد حرشاً يخدشه في كل ملامسة.

كان يغالب النعاس الذي مال برأسه أكثر من مرةٍ على المتكأ الذي استعاض به عن المخدة؛ لئلا يستلقي تمام الاستلقاء.

تذكر حجرة نومه عندما أراد أن يدخلها صباح اليوم، ما كاد يفتح الباب بعد لهاثه من السلم حتى رأى ظلين يرتميان على الحائط بجانب الضفة الأخرى من السرير، ظلين متعانقين، يقبلان بعضهما. اختلط عليه الأمر، داخله النوم ربما؛ لكنه هرب مغلقاً الباب في حدة، صوت الطفل من الأعلى خفت، وهبط تدريجياً ليصل عند نهاية السلم في الدور الأرضي، كان هناك صوت قهقهة مبحوحة مألوفة يتقدم صوت القرآن القادم من الخلف من غرفة المعيشة، ارتفع صوت الطفل الباكي يضحك مع أبيه ضحكة قصيرة ناعمة، «هدف» كانا يلعبان. تقهقر إلى الوراء، لغرفة الأطفال، الغرفة المجاورة لغرفة نومه، كان يحبها كثيراً؛ لكنه لم يسبق أن جلس فيها لأكثر من بضعة دقائق؛ خاصة في بضع الأشهر الأخيرة. كان يشعر أنها أحياناً مليئة بالفوضى وكل ما لا يجب أن يكون، بينما يراها على الأغلب الغرفة

التي تحتضن بوداعة لوازم الأطفال من الجلاسة إلى المسبح المائي. لا شيء، بدأ يطمئن قليلاً، أخرج جواله ليهاتف أي أحد يعينه. «بابا» « بابا» «بابا» الطفل الذي ما زال يلعب بالأسفل مع أبيه، يناديه في مكانه الحالي، لا يرى شيئاً، هبَّ واقفاً، ظلُّ الدراجة الصغيرة الواقفة على الجدار يتحرك، كان فم الطفل في الظل يتحرك متزامناً مع الصوت المنادي بما يكفي ليعرف أنه صاحب الصوت، هرب بأسرع مما يظن، كان يعرف أنه لا يركض لوحده، صوت أقدام أخرى تجري معه، لم ينسَ ولن ينسى أبداً أن الظلَّ الأنثوي من المطبخ خرج ليلحقه على مهلٍ في الممر ويقول: لا تتأخر. الكرة تصطدم بغطاء اللمبة، يتذكر ذلك الصوت جيداً، أغلق باب الشارع بقوة. اقتحم أبوه مكانه، ظنَّ ذلك على الأرجح، ربما أنه لم يشعر به تماماً وهو يفتح الباب، انحنى عليه قليلاً بلحيته البيضاء الناصعة قائلاً: قم للصلاة، أذن الفجر.

لم ينم بالمجمل جيداً، أو أنه شعر بحاجةٍ لساعاتِ نومٍ إضافية؛ لا يدري ما الذي يستبقه حين يستيقظ ولا يفعل شيئاً سوى أن يفكر في تداعيات غربته وانتظاره لشيءٍ لا يدري ما هو؟ فضلاً عن حقيقة ذلك الانتظار نفسه. اصطحب ظهر ذلك اليوم أخته وخادمتها إلى منزله، كان يبحث عن أثر الماء الذي غسل به البيت بالأمس؛ لكنه لم يجده، أغلقت شقيقته التلفاز في غرفة المعيشة، كان ما يزال يصدح بصوت المقرئ، لم يستطع أن يدخل معها، تفقد الجدران سائراً للداخل حيث الصالة والمطبخ وغرفة ضيافة نسائية مقفلة دائماً. جال مع أخته أرجاء منزله الصغير، صعدا للطابق العلوي، لم يشأ أن يخبرها بتفاصيل ما حدث بالأمس مكتفياً بتشذيب العناوين الصغيرة التي أنبأها بها، حين بلغا عتبة الدور العلوي تجاهل الالتفات للدرج الصاعد للسطح، تجاهله ذاك لم يمنعه من الشعور بوخزاتٍ معوية سريعة. تفقدت شقيقته الغرف بصحبته، من غرفة نومه أخذت وسادة وملاءة، وانحنت

لتلتقط من الأرض شيئاً، كانت صورةً ملقاة عند الخزانة الأخرى، مدت بها له بعد أن فتحت النافذة لتندفع الستارة للأمام كشراع صغير، كان وجهه في الصورة متألقاً مع مسحة حزنٍ في عينه اليسرى؛ ذراعه الأيمن كان من البديهي أنه يطوق رقبة شخص آخر قصَّ جزءه الخاص به. خرجت شقيقته من الغرفة المجاورة الأشبه بمستودع بمكنسة كهربائية، لينزل خلفها للأسفل، تغافل عن ظلٍّ صغير لم يكن باهتاً ارتسم خلف قدميه على ثلاث درجات من السلم ثم اختفى، كان صاعداً فيما يبدو. دعت شقيقته الخادمة لأن تنظف غرفة المعيشة جيداً، بينما اهتمت هي بالمطبخ، كان حوض الغسيل طافحاً بصوانٍ وأطباق وأكواب متفرقة. استلقى في الصالة على الملاءة التي فرشتها له شقيقته ولم يفعل شيئاً أكثر من أن أطبق جفنيه فحسب، فيما بعد أخرجت الخادمة كومةً من أكياس المطاعم والبقالات والمغاسل لتكومها في القمامة التي وضعتها شقيقته عند باب المطبخ، القمامة كانت مكتظة أيضاً بأقداح صغيرة تجمد الشاي في منتصفها في الغالب. سلة خبز طبع فيها العفن. سمع الجرس؛ لكنه كان يعتقده حلماً، أبوه يدلف بكيس غداء كبير، يعطيه لابنته، يسألها عن المدة التي نام فيها، تجيبه، ثم يحدثها عن شخص اتصل عليه لشراء المنزل. سيبيعه رغماً عنه إذا ظلَّ هكذا. قال ذلك حين فهم من ابنته أنه لن يوافق. قريباً منه حين جلس الأب، قال لابنته وهي تغرف الغداء في صحنٍ كبير: ما زلت تبحثين له؟ أجابت وهي تضع الصحن على السفرة: ما زلتُ والله يا أبي أبحث؛ القلة التي قد تفعل، تريده موسراً على الأقل إذا لم يكن ينجب.

في تلك الأثناء كان يصارع جاثوماً حقيقياً، ودَّ لو لمسه أي أحدٍ منهما، كان يشعر أنه ينسحب لمكانٍ ما في نفسه، في قاعٍ قصي. يسمع كلامهما من بعيد بطيئاً بارداً كأنه لا يحدث إلا في حلم، أخته من يتحدث: مضى الآن أسبوع

بالتمام على زواجها..، أطبق عليه الجاثوم أشد، الوضع يرهقه أكثر، ظلٌّ يودعه في مكانٍ ما يراه لكن ليس على الحائط، يتساءل: لِمَ لا يوقظني أحد؟!

كائن نهاري

منذ أن أصبحت كائناً نهارياً وأنا أتقيأ الليل مرةً كل أربع ساعات من لحظات الصباح الأولى حين أستيقظ إلى أفول الشمس عندما أنعم بغفوتي الكبرى. وفي المرات التي لم أكن فيها قادراً على التقيؤ، أخرجه في الحمام سائلاً متخثراً بمواد شمعية قريبة من اللون الأخضر، وكنتُ حين أصاب بإمساك إضافة إلى غثياني المتبقي من عدم قدرتي على التقيؤ، أتخلص منه بطرقٍ أخرى: أتعرقه أحياناً قليلة؛ أطبعه بسبابتي وإبهامي الأيسر على صفحات بيضاء فارغة كنتُ أعددتها فراشاً وثيراً لأحلامي الصغيرة، تجف من ثم الصبغة لتصبح كلماتٍ أستطيع قراءتها على ضوء الشمس، تنمو وتنسل بمرور الوقت فتصير كتاباً مهيباً يقف على رف مكتبتي النهارية. حين لا يحدث أي من تلك الأعراض، تتحول بشرتي السمراء المشربة بأحمر إلى سوادٍ كثيف متجهم ينفر منه من حولي، لم يسبق أن رآني أحد بذلك الشكل سوى الخادمة التي كانت ترسلها أمي كل أسبوع لتنظف شقتي الصغيرة، لم تجرؤ على المجيء بعد ذلك، ولم ترسل أمي خادمة أخرى بعدما اعتقدت ـ حسب ظني ـ أن الأمر لا يعدو تحرشاً جنسياً.

كنت أتخلص من الليل بطريقة غير مألوفة، كما أنها غير إرادية بادئ الأمر وهذا ما جعل الأمر أشبه بتحولي بطريقة بشعة إلى آلة أو أداة لقوى غير طبيعية أرفض الإيمان بها وهذا ما كان أكثر قسوة بالنسبة إلي.

فيما بعد تحول الأمر تدريجياً إلى تفاعل إرادتي مع ما يجري، وجدتني أقتصر على سماع أجنحة الملائكة ترفرف عبر صوت فيروز، زرعتُ حديقة

مصغرة جانب العمارة في الأرض الخلاء، اشتريتُ زوج بلابل وكناري، لم يلبثا سوى يومين حتى أطلقتهم محتفظاً بأقفاصهم كذكرى جميلة، كنت قد سجلت تغاريدهم في هاتفي. كتبت شعراً حالماً على غير العادة حين تحولت تلك المكتبة الصباحية التي يمتلكها ذلك العجوز العقيم لمقهى صباحي أشرت عليه به، كنت ـ قبل أن أكون هذا الكائن النوراني الذي أعتقده ـ ألتقيه في عددٍ من الصباحاتِ التي لا أبتدئ بها يومي بالأحرى، وكان على فراغه الذي آنسته منه لا يفتحها في غير الصبح أبداً. وصلتُ أمي وأقاربي على فترات منتظمة، لم يكن أحد يرحب بي سوى أمي طبعاً التي ما كانت تستسيغ زياراتي الصباحية، إلى أن طلبت مني ذات مرةٍ أن أرجئ الزيارة لما بعد الظهر على الأقل حتى تكون أنشط في استقبالي.

الضوء الذي في داخلي أصبح مرئياً، تتحسسه الطرقات، وتصد عنه أعمدة الإنارة، تخذله الأرصفة، الحديث الذي كنتُ أتجاذبه مع الوحدة بعد أن ألوكه كثيراً انحصر في ابتسامة صافية لا أشعر بجهد في فعلها.

كنتُ أنطلق في فضاءات واسعة لا تتشابه الأيام فيها، وأتجاوز آفاقاً شاسعة تحيطني فيها أفكار جديدةٌ لا تخبو، أصبح صوتي جهورياً، لم أعد أستخدمه كثيراً، كنت غالباً ما أكتفي بتلك الابتسامة، لم تعد هناك أسرار، كان كل شيءٍ جلياً وواضحاً.

فيما بعد حين تحولتُ لسحابةٍ شديدة البياض في كبد السماء كنتُ أدرك الفجوة العميقة بين الناس والطبيعة وأنا أهطل عرق الحياة الصباحية الجميلة على بيتِ أمي، والحديقة التي زرعتها جانبَ العمارة، وعلى السقف الطيني الذي يظلل مكتبة العجوز المغلقة.

جناح السلطان الأيسر

كنت امرؤاً عربياً لا آوي إلى ركن شديد، ولا إلى دمٍ فائرٍ ينتصر لي في قصر السلطان مقدار ما مكثت هناك وإن كان قليلاً.

كنا أقليةً إزاء ما تبقى من الفرس والترك والسلاجقة ومما يليهم من العجم. لا شوكة لنا ولا فاخر إلا ذهب مع تلك الريح الطيبة التي حملت معها أرواح أسلافنا الصالحين؛ الذين أسسوا وبنوا وطاولوا بعلمهم وعمارتهم الدنيا بأسرها، حتى إذا ورثها هؤلاء من دوننا آثروا بها علينا كل شيء. حتى الدنية من العرفان بالسابقة لم يتصدقوا بها علينا!

لم يكن بوسعي إلا أن أفعل ذلك حين أُمرتُ، وإلا فإني عاصٍ لا أستحق الحياة في عيون أمرائي ومولاي السلطان فيما أعتقد؛ لأنه لن يتأخر عن اللحظة التي تقدم فيها بالتنكيل لا يحترز فيها عن شيء إلا نفسه.

إبراهيم صاحبي الذي يناصفني الحجرة كان حينها مناوباً على بوابة القصر الشرقية؛ لذلك ربما سُهل عليَّ أن أنجوَ، وما كنتُ أعلم ما يكون منه لو بقي فيها ليلتئذٍ، كما أني لست أعرف إلى هذه الساعة ما جرى في تلك الأثناء التي غبتها في أركان القصر المنيف إلا ما قيل عن الحاجب.

كنتُ حارس السلطان على عرشه، أملأ جناحه الأيسر الفارغ، وكنتُ من الحراس بمنزلة الأعيان من العامة، ومن الحارس الآخر كما تكون شمالُ المرء من يمينه التي يبتدر بها الطيبات، ومن الحقيقة كشيءٍ لا علاقة له في تصديق وتكذيب، شيءٍ لا يظهر في متنٍ ولا هامش، لكنه موجود، تشعر بوجوده مع عدةٍ من الموجودات؛ غير أنه لا يبدو بنفسه إن تفرَّد في موطئ، أمَّا السلطان

فكنت منه كلبنةٍ في حائط سوره المنيع، لا يملك حيال بشريته وسلطته إلا أن ينظر للسورِ نفسه كفكرةٍ تظلل بقاءه على العرش.

وقفتُ ذات مرةٍ على باب مسجد الإمام المحدث أبي الفرج المغربي ممانعاً عنه مجموعةً من الأوباش الذين اتبعوا قول أشياخهم وأئمتهم بزندقته وتخليطه، فناجزتهم وأربعة فتيان حتى أغلقنا باب المسجد الخارجي، فاستعدى أهلونا رجال الشرط عليهم، فعادت حمايتي للإمام عملاً حين ولي القضاء، ومن ثم لصاحب الخراج في بضعة أشهرٍ تسللت منها لحراسة الباب الغربي لقصر السلطان المفضي لبستانه، إلى أن استعاض بي أمير مجلس السلطان ــ وقد وقع اختياره عليَّ من قبل في طارئٍ لحراسة الخيمة في البستان ــ عن واحدٍ من حارسي الكرسي كان قد طلب إذناً من السلطان في الخروج مع أحد الجباة ليزور أهله بعد مدةٍ من الانقطاع، لم يكن لتتسنى له هذه الزيارة أو الإذن لو أنه طلبه من النقيب أو الأمير، وكانا قد أعذرا إلينا فيما سيكون منهما إن نحنُ حاذينا فعل ذلك الحارس الذي لا أعرف أين مضى به حاله الآن؟ هل رُحِّل إلى ثغر؟ أم نزحوه ليردف أحد أمراء الكتائب على ساحل الشام؟ أم أعادوه متدرباً في ثكنةٍ بعيدة؟ أم نكَّلوا به كما فعلوا بذلك الجندي في أيام الخراج التي انتدُبتُ إليها حينما استصرختْه ـ كما قال ـ امرأةٌ كتابية أخرجها أحد الجنود للسبي، وكان بعلها حرضاً، ولم يجدر بها أن تجمع الغلة شأنها شأن أهل تلك البلدة ذلك العام، وقد كان محلاً مجدباً لا حياة فيه. فأجابها إلى ما تريد ودفع ما عنده لرفيقه، واستوصاه أن يكتم ذلك عن الجميع، فما كان إلا أن عرف الناس بالخبر، فاستشاط الجابي لذلك، وأمر بقتله؛ لكن أمير الجند اعترض متلطفاً لأنه المخول الوحيد بذلك، ليتولى عقابه بنفسه، فسحلوه وطافوا به أرجاء البلاد في تلك البعثة عرياناً، حتى إذا بلغنا أربنا وانتصفنا طريق العودة لم يكن فيه روح، فأُلقي في العراء. منذ

ذاك وأنا أتحسس تلك القيم التي أحملها في صدري فتنكمش وتنزوي عني في ركنٍ قصي من نفسي خشيت وأنا أتفقده فيها بعد ألا أصل إليه ما حييت.

لم أقف على حقيقية شعوري حين بلغت قصر السلطان ومجلسه الخاص بعد أزقة اليمامة، ومصطبة التلمودي التي كنا نتسامر فيها، ومجلس حماد المغني وجاريته حَباب، وشواء أبي يعلى الذي كنا نذخر له النفيس من بدوات شهوتنا إليه، ومسجد الإمام أبي الفرج. لا أستطيع أن أصف ما مسني حيال ذلك؛ لكنني أخاف أو كأنني أخشى أن ألتفت لنفسي ساعة خلوة. أعتقد أنني كنتُ هارباً منذ ذاك وليس مما فعلتُ وما لم أفعل ذلك الحين.

كان مجلس السلطان يعج بما لا أحفل به وما لا أسعى إلى فهمه في كثير من الأحيان، عدا الشعر الذي يحملني على متنه كُبراق أجوب به الدنيا بأحلامي وآمالي وذكرياتي البضة؛ لكن شعراء السلطان لم يحلقوا بي بعيداً وما تحركوا بي قيد أنملة. لم يجاوزوا القصر، ويد السلطان، وتاجه، بل وكنيفه حتى أعزكم الله. حتى وقوفهم على الأطلال كان لا يوقظ فينا خلجةً، ولا يستعجل عبرةً ولا يزيد في لوعةٍ تجترها ولا ينقص منها شيء. فكنت أستمع إليهم أتفقد ما يؤنسني فلم أجد، فأعود لأزيد من انتصابي آملاً أن ينتهي المجلس بأسرع مما أعتقد، وألا أشعر بطوله إن لم يُكتب له أن ينتهي على عجل. حتى الغناء الذي كنت أتناوب فيه مع رفيقي الآخر عند باب بستانه من البهو المفضي للداخل حين يسمر هناك مع ندمائه لم يكن يشنف أسماعنا. صاحبي الحارس الآخر إياه لم يكن يعرف حماداً لما ذكرتُهُ بخير ولم يسبق له أن سمع عنه شيئاً؛ لكنه أقسم لي وهو يلتهم تلك التفاحة فضلة ما بقي في المجلس أنه على يقينٍ من أن حماداً هذا لو اقتصر فقط على صوتٍ واحد لغمر المكان بالحياة، كان يردف ذلك بضحكة ساخرة، ثم يرفع كفه للسماء ويقترب مني هامساً: ليغفر الله لنا، والله ما هذا بذنبٍ أظنُّ أن سنحاسب عليه. كانت هذه الفلتات على

لمام ما تحدث تنجينا مما نكاد أن نقتل فيه صبراً واحتمالاً وإطالةً عن كلٍّ ما للحياة من معنى. لست أعلم أفي السلطة ما يفسد الذوق؟ أم أنه اتفق لنا ذلك؟ فما نسمعه من الرواة وما يتناقلونه عن الخلفاء والأمراء يخالف ما نحن فيه حسناً ورونقاً ونضارة.

صباح اليوم الأخير، كان قد سبقني ككل الصباحات هنالك، كان ضحىً على وجه الدقة، أفطرتُ على ما وُدع لي من سخينة، وفضلة خبز ملفوفةٍ بقماشٍ لإبراهيم، كان قد تركها لي لما لم يجد بي حاجةً للاستيقاظ، ومضى حيث يجتمع مع بعض رفقته في ديوان المعسكر. يقع معسكرنا في جانب القصر الغربي شمالاً من بستان السلطان الكائن في ركنه الجنوبي قريباً من الباب الغربي الذي استطعتُ أن أنفذ منه ليلتئذٍ.

ما كنتُ ممن يحب أن يلبث مع الجند في الديوان، وإن طاب لي ذلك أحايين، ولم أجعل الباعث على ذلك شيئاً فيهم ولا فيَّ، إنما في الطبيعة التي لم تتفق على أن تتناسب الأسباب بيننا، فلتاتهم عن الجواري والقينات بل واثنتين من الأميرات تغصُّ بها حلوقهم حين أدخل عليهم. تكلح وجوههم، يضيقون، يتفرقون عندما يرونني، خلا إبراهيم لا شك وبعض من يداخلني تملقاً لا أعرف سببه، فأنا وإن كنتُ حارس جلسة السلطان، وأحد حماته الأقربين ـ وهذا يجعلني أدرك خوفهم من الوشاية فيما يتغامزون به على نساء القصرـ إلا أنَّ ذلك لا يفضي إلى أن يتملقني أحد، فلو كنتُ آخذاً بناصية أمرٍ لكان أمري الذي ما زلتُ غير قادرٍ على أن أدفع ازوراره عني. أمَّا عربيتي المعدودة في القصر وهم الخليط الأكثر من الفرس والترك فكان لها مدعاةٌ وإني لأظنها أيضاً في غير هذا من الخزايا كما حدث في أحد العروض في الساحة حين تمالأوا عليَّ متعاقبين في تلك المناجزة؛ ليكسروني بعد أن علوتُ أغلبهم. أمَّا إن كان حسداً فعجل الله بعقوبتهم إذ لم ينظروا إلى روحي المخبوءة، واغترابي

البادي، ووحدتي التي ارتفعت حتى قسمتني على نفسي أجزاء، وأنا جناح السلطان الأيسر المقصوص في المجلس وهو الذي لا يعلم بهذا.

كان قد مضى ذلك اليوم بما تجري به العادة، غداؤه مع الخاصة: وفيهم حاجبه والأمير، ثم ساعته التي يقيل ويختلي فيها بأهله، ثم يتنزه في بستانه عقب أن يفيض من العصر إلى ما قبل الأصيل، ليستقبل بعد ذلك رسلَ عماله، وجمعاً من الوفود المحملين بالهدايا والأعطيات. كان قد اجتمع بعد مغرب ذلك اليوم براهبٍ نصرانيٍ، صُرفتُ حين أخذه الحاجب بصحبة السلطان إلى غرفةٍ صغيرة في ركن المجلس الأيسر من عرشه. استأنفتُ نوبتي فيما بعد العشاء في المجلس، وكان الخدم قد أعدوا المكان ـ أثناء اجتماعه بالنصراني ـ للسمر، فطُرحت في اليمين بمحاذاة حوض الماء المذهب مسورته المزينة بالريش وأُخَرُ نضرةٌ لندمائه؛ وسلالُ فاكهة وأقداح لغبوقهم، وكانوا قد دعوا أحد من تأخر على السلطان من الظرفاء، وراوياً لا يبالي السلطان بما يحدث سوى حين يكذب، وشاعراً لم أسمع باسمه من قبل، ولستُ أدري حتى الساعة إذا كنتُ قد التقيتُ به أم لا؟ فالجلسة التي مُهِّد لها كل هذا أخرَّها الله عن ذلك الميعاد، أو أخرني عنها إن استؤنفت فيما بعد، لا زلتُ واللحظة التي دلف منها ذلك الصبي ـ كان أشعث ـ من الباب في استبطاء من لا يدرك من أمره شيئاً في غبش، لا أستجليها غاية الجلاء ولا تسفر لي إلا عن القليل. لم يكن السلطان يتنكر معرفته حين سأل الحاجب من خلفه هناك، ثم جن جنونه، واكتظَّ المكان بما يبتدر الأسير حين يساق إلى ما لا يعلمه إلا موتاً وإن كان فيه رمقٌ للفداء، كانت صيحة السلطان فينا وهو يلتفت فيما بعد لا تنبئ أنها الأولى. أُخذتُ بما طبعه المشهد علينا، لا أكاد في ذلك الوقت فضلاً عن الآن أميز الأصوات التي تداخلت وتراشقت، لوهلةٍ تراءى لي الحاجب من وراء ذلك الصبي جاحظَ العينين يشير بيده إلى صدره، السلطان يستوي

جالساً فيما أذكر، أو أظن، يستعدي الأمير عليه. تفقدنا معه بوابات المجلس الثلاث، وأمر حراسها بألا يفتحوها حتى يأذن لهم من الداخل، الحاجب أحسَّ بالذنب فيما أعتقد، بل هو كذلك، كان يقول إنه أخطأ فهم السلطان، وكان قد سارَّه بعد أن نفض القوم أيديهم من الأكل، لا زال صوته يتردد في أذني ساعتي هذه: خيراً من ذلك يا مولاي، خيراً من ذلك. تضرع لأميرنا ـ وهو: أي الحاجب، أقربُ إلى السلطان منه ـ في أن يشفع له؛ لكنني لا أذكر ما حدث بعد ذلك سوى حين خُلِّيَ بيني وبين الصبي على أن أميل عليه بسيفي، كان امتناعي عن ذلك لا يعني سوى الموت، فاستسلمتُ لقضاء الله دون أن أنظر لعينيه التي استنطقت في لحظة عابرةٍ كل ما كنتُ أكتمه من شعورٍ بالخزي منذ أن ولجتُ في هذا الأمر، لست أدري أنسيت في غمرة انشغالي ما انطبع في نفسي حذراً من ذلك، أم هو الإلف والعادة، فالذنب أيسر ما يكون إن اعتدت على فعله وأَلِفَه خزيُك البادي في نفسك.

لست متيقناً من ذلك حين وجدتُني في الحجرة؛ أأنا الذي أفقت أم شعوري تلك الساعة؟! كنتُ أتوغَّل فيما أحاط بي من البرزخ الذي ظننتُ أنه سيلفني في قبري؛ فإذا به قد مدَّ لي من معناه ما لا أستطيع أن أحوِّل بصري عنه إلا إليه؛ لذلك فأنا لستُ على ثقةٍ من أن أكون قد احتلتُ أم وقع الأمر الذي أرادوني عليه.

الرضوض التي في شق رأسي الأيمن جراء السقطة، لم تكن لتؤخرني عن النجاة، عدوتُ بأقصى ما أستطيع، استحثثت قدميَّ نحو الباب الغربي، أغويت حارسه الأول بنصيبٍ من قسمة السلطان أحب أن يشركه الأمير فيها، وكان الآخر قد ذهب للخلاء فكفاني نفسه، فاجتزتُ الساحة إلى النهر، فانعطفتُ على ضفته إلى أن بلغتُ دغلاً يتراءى من خلف خان صغير، كان يمتد مسافةً غير قصيرة إلى أن يتصل بطريقٍ موازٍ غير مرصوف بالساحل،

تواريتُ حين التفَّ بي ناحية البحر أسفل منحدر في كثيفٍ متشابكٍ من شجرٍ وأحراش، كان الليل ساكناً إلا من أنفاسي المضطربة، كنت أصغي إلى اللحظة التي تطأ فيها أقدامهم ما وراء ذلك الخان، خلتُني بسيف ذلك الحارس الذي أغويتُهُ أدفع عن نفسي حتى يديرون علي فيقيدوني إلى هناك. ما تورع السلطان عن قتل اثنين ـ دون الخامسة عشر ـ من أبناء أخيه وطرد ثالثهم ابن السابعة إلى تخوم الروم حين نازعهم ملك أبيهم، وغلبهم من ثم بأخذ البيعة له ولأبنائه من بعده، وأبقى لأمهم التي أمر بعض قاداته باغتصابها حيث حُبستْ في سراديب القصر جارية صغيرة ورضيعاً، وهو الذي دلف صبياً ليلتئذٍ.

تمَّ له ذلك بمعونة أمير الجيش السابق الذي قتَلهُ هو الآخر بسيف خَلَفِه، وكان قد والاه واتفق معه قبل موت أخيه إبان سلطته؛ لكن أمر البلاد استقر بعد ذلك للناس، ونزلوا على حكمه دون أن يبالوا بالأمور التي حدث فيها ذلك، بل وما عدوها ـ وأنا منهم ـ فيه مثلبةً، فكفاهم منه أن خلَّى بينهم وبين أرزاقهم وأعمارهم التي قضاها الله. خوفي الذي يصحبني كان أقوى من ذلك الذي أترقبه في جارحٍ، أو زاحفٍ أو سام، خضتُ البحر حين أسفر الصبح مع قافلة حجيجٍ، ثم مكثت متخفياً في البادية ما شاء الله، ولم يكن قد بلغني أثناء ذلك شيءٌ أخافه أكثر أو أأتمنه، إلا ما كان من أمر الحاجب، فإن الذي أبلغني ذكر لي أنه حاجبٌ آخر غير أبي هلال الذي لم يعد يُذكر عنه شيءٌ أبداً، وما أخبرني أحدٌ من قومي عمن طلبني في اليمامة، كنتُ أسرق تلك اللقاءات على طرف وادٍ، أو على ضلع جبل، ما كنتُ لأخفر عهدي بالخوف منذ تلك السقطة أمام الصبي، حتى وقتي هذا وأنا أهيم بين البوادي قاطعاً مفاوزَ وآكاماً وشعاباً وصحارياً ألتمس الأمان، ذاك الذي طلبته منذ أن انتقلت إلى القصر جوار السلطان.

المستحيل ممكناً

أشيع على غرار ما تمَّ تداوله إبَّان إنشاء المركز العالمي لإحياء العقول بشأنٍ السرِّ الغريب الذي كان أكثر خفاءً من الغيب نفسه في قيامهم بإجراء عمليات تقنية غير معقدة تجرب بها إعادة حياة عقول العظماء الموتى في مخ بشري حي؛ وفي الحقيقة لم يكن هذا هو أغرب ما في الأمر بالقدر الذي كان في كيفية احتفاظ نفرٍ أو فريقٍ من العلماء على مدى ثلاثة قرون بأدمغة بعض أولئك الموتى سليمة دون خلل، وهل كانت هذه الطفرة من العلم من الخطورة بمكان حتى يتم إخفاءها بطريقةٍ تفوق كثيراً طرقَ أعتى أجهزة المخابرات في العالم، حتى كأن الأمر أصبح «جيوسياسي» بمناخٍ وأرضٍ غير هذا المناخ وهذه الأرض، على غرار ذلك أشيع أنَّ حفنةً من أمهر لصوص العالم قاموا بنبش كثير من القبور التي يُظنُّ أنها بمنأى عن التحلل لقداسةٍ ما، أو لظرفٍ علميٍّ ما، وتحركت على إثر ذلك كثير من السلطات في حماية ما تعتقد أنَّ له قداسةً دينية، بل إن بعضهم قام بتشكيل قوةً خاصة من قوات الدفاع لحماية تلك القبور والأضرحة على حسب الاعتقاد لا على سبيل الحقيقة؛ لأنهم لم ينبشوا في النهاية تلك القبور ليعرفوا إن كان اعتقادهم صائباً أم مخطئا، وليس غريباً أن يتمَّ عزو أمر تلك العصابات إلى أصحاب المركز العالمي ذاته بحسب المصلحة الظاهرة للعيان، وبالرغم من أن المركز العالمي أصدر بياناً طويلاً يوضح هدفه الأساسي من الوظيفة التي يقوم بها لخدمة العلم ويطالب المؤسسات الأمنية في العالم أجمع أن تقدم دليلاً ملموساً يؤكد تلك الاتهامات الصادرة من بعض منسوبيها في وكالات الأنباء متمنين من رجال الأمن والسياسة ألا يعيدوا التاريخ المظلم باصطفافهم الدائم بجانب رجال

الدين ضد العلم، وعليهم أن يتخذوا موقفاً إيجابياً أكثر ثباتاً من قبل يليق بهذا التحول العلمي الكبير الذي له ما بعده كما تشي به المؤشرات الحالية، أقول وبالرغم من ذلك إلا أن ما أشيع في الناس وتداوله العامة بدأ يأخذ صفةً رسميةً أكثر وضوحاً من قبل، فتمَّ استبدال الخبراء المتقاعدين الذين انتهت أدوارهم في تلك العمليات العسكرية الناعمة الموجهة في الإعلام بقادةٍ ميدانيين، ووزراء ذوي اختصاص، لترسيخ تلك التهمة وإن لم يكن لها دليل غير المنطق الذي يربط بين نبش القبور وصميم عمل مركز الإحياء، وحدهم عقلاء الليبراليين من استطاع أن يغلِّب مصالح العلم على مصالحه الفكرية وخلافاته الشخصية، ونجح مع من لا يؤمن سوى بالعلم دون أجندةٍ في أن يعزل ذلك الفريق العلمي ومركزه ويحيطه بحمايةٍ شُكِّلت من أبرز الدول الليبرالية التي تتزعم العالم الأول دون تلك التي في صراعاتٍ دائمة في العالم الثاني والثالث، وإن كان صوتها أعلى في هذه القضية العالمية دون سببٍ واضح، ويبدو أن تلك الحماية المبسطة للمركز جعلتُهُ يذهب بعيداً حينما عقَّب مؤخراً ببيانٍ مقتضب يطلب فيه من العالم أجمع بمن فيهم ذلك البعض الذي يحميه أن يتحرى الحقيقة في تلك الاتهامات الصريحة الموجهة للعلماء بشكل عامٍ وهذا الفريق بشكل خاصٍ، ثم عرجوا على الدول والمؤسسات الضالعة في هذا الأمر مخيِّرةَ إياهم بالكف عن تلك الاتهامات غير المسؤولة أو تقديم دليلٍ مادي واضح يدعم تلك المزاعم وإلا فإنهم سيضطرون آسفين لكشف بعض المؤامرات السياسية الخفية التي تمت من قبل زعماء وقادة سابقين وحاليين مع هذا المركز قد تحول المشهد السياسي والأمني رأساً على عقب.

الغريب حقاً أن هذا البيان كان قاطعاً لكل تلك الحملات المشككة والمحرضة في آنٍ واحد، حتى وإن ظهر صوتٌ من هنا أو هناك يتبع بصفةٍ

أو أخرى لتلك الدول والمؤسسات، إلا أن ذلك التهديد قد أتى أُكُله حقاً فيما يبدو، وانتفت الصفة الرسمية التي تولّت ذلك الاتهام، ففترت الشائعة وأصبحت بالكاد تُذكر كوجهة نظر لأحد العامة حين لا يقتنع بتلك الدلائل والقرائن التي قدمها فيما بعد مجلس الأمن للعالم من ضلوع أحد الجماعات الإرهابية الدينية بالأمر. وكان لا بد حينها من منح ذلك الاكتشاف العلمي مساحةً رحبةً للحديث في وسائل الإعلام عقب المنع المسبق في أغلب دول العالم، إلا أن السلطات أبداً لم ترفع حظرها عن ذلك، واكتفت بنقل القليل من التقارير الموجزة من بعض الصحف العالمية التي لم يقع بينها وبين المركز نزاع من قبل؛ لتُظهر للعالم أنها ليست في خلافٍ مع ذلك المركز في وظيفة ذلك الاكتشاف، وإن كانت لا توليه تلك العناية المستحقة كما تفعل بعض دول العالم الأول، وكأنها في ذلك ترسل رسالةً إلى شعوبها بأنها لم تغير موقفها المعارض من الأساس؛ ولكنها تحذو حذو بقية الدول في الانفتاح على العلم بأيِ شكلٍ من أشكاله، وهذه ليست إلا سياسة فرضتها الدول النافذة في هذا العالم على البقية وإن اختلفت معايير تطبيق تلك السياسة في كثير من الدول حسب ظروفها حتى تكون تلك السياسة أكثر مرونة.

هنا في منتصف الشرق الأوسط حيث أكتب هذا التقرير كان الأمر على الجانب الذي لا يجعلك تفكر كثيراً في أي صفٍ وقفت دُوَلُه جميعاً؛ لكن لك أن تتصور أن الأمر أشبه بأن يمثِّل «تابو» رابعاً، رغم أن الصحف ـ وهذه حقيقة ـ مجزأة بين ليبراليتين: حقيقية ـ وهذه لا تشكل بنسبتها أكثر من ٣٪ ـ ووهمية سقفها حكومي خالص وهي إن أبلت بلاء حسناً لدى أنصار الحرية فبالإطار المسموح به من قبل الدولة لا غرو في ذلك، ويندرج تحت هذا بعض الوساطات التي يتفرد بها بعض النافذين عند الرئيس أو الأمير أو الملك مما لا يكون العمل به إلا استثناءً، وهذا ما حدث تماماً من رئيس

التحرير حين ندبني لهذه المهمة التي لن أقول عنها مستحيلةً عقب أن تمت الموافقة عليها من قبل صاحب القرار الأول في الدولة بوساطة نافذٍ مقربٍ إليه أستطاع رئيس التحرير بعلاقاته الواسعة والخاصة أن يجعله واسطة عقد هذه القضية؛ خاصةً وأن الرجل ليس على وفاقٍ مع الدين نفسه فضلاً عن رجال الدين الذين يملؤون البلد، ولستُ أظنه في حقيقة الأمر متعطشاً لسبر أغوار ذلك الاكتشاف؛ ليس لأن الحملات الدعائية للمركز أصبحت أضعف بكثير من بدايات الإعلان عن إنشائه خاصةً بعد الاضطرابات التي حدث مؤخراً بشأنه، ولا لأن الموقف التي اتخذته الدولة بمساعدة كبيرة من رجال الدين كان يعجبه، أبداً؛ ولكن لأنه في غنىً عن تلك المعرفة، وحينما أقولُ في غنىً؛ لا أقصد به أنه في درجةٍ من الكمال بعيدةٍ عنها ـ أي: تلك المعرفة، أو أنه بمركزٍ سياسي اعتباري يؤهله لأن يقف على تلك الاتهامات التي طالت زعماء دول ـ لعل دولتنا من بينها ـ بالضلوع في تلك الفكرة، أبداً على خلاف ذلك، الرجل في غنىٍ عن ذلك لأنه لا يعتني بهذه الأمور، أقول هذا عن شبه معرفة وكبير خبرة بهؤلاء الرجال؛ ولأن الأمر تقاطع تقاطعاً كلياً مع ما يهوى وهب نفسه للعلم وشفع لصحيفتنا الغراء أن تنفرد في هذه المنطقة بأسرها بالكتابة عن هذا الحدث الذي كرهه هذا العالم بعشرة أضعاف ما أحبه.

ليس منطقياً أتحدث عن كيفية انتدابي لهذه المهمة من بين الكثير من زملائي الذين ربما فاقني كثيرٌ منهم في الحس الصحفي؛ لأنه القدر بالتأكيد هو الذي ساقني لذلك، تماماً كما فعل مع صحيفتنا بأن ساق لها رئيس تحرير له علاقات واسعة جداً مع نافذين ومؤثرين، ليس في البلد فحسب؛ ولكن خارجها، وهو أيضاً ما ندين للقدر به حين جعل من بروفيسور في جراحة المخ والأعصاب ـ كان قد أدار وهو في مرتبة اختصاصي ملحقاً طبياً في

صحيفةٍ علميةٍ عمل بها رئيسنا في بداياته ـ على علاقة غير مباشرة بأحد أعضاء الفريق العلمي في ذلك المركز، وهو الأمر الذي سهل علينا وعليَ أنا خاصة بعض عوائق هذه العمل.

هناك، حيثُ الجزيرة المعزولة وعلى بعد خطوات من باب المركز من الداخل استقبلني المرشد الخاص مرحِّباً بي ومعتذراً عن شدة الإجراءات الأمنية على باب المركز، لم أخفِ امتعاضي من ذلك واستنكرتُ التسهيلات التي حُدِّثتُ بشأنها جراء التقرير الصحفي الذي يعد سبقاً في منطقة الشرط الأوسط وتعود فائدتُهُ في نفس الوقت للمركز، أجابني بأن التسهيلات كانت في المدة الوجيزة التي استخرجت لي فيها بطاقة الزيارة على أنها تأخذ في العادة ما يزيد على أربعة شهر، وأيضاً في اختيار الموعد المحدد وقد خُصص للبعثات الدبلوماسية التي لم تكن بالعدد الكافي لمسمى بعثة؛ وذلك بسبب موقف أغلب دول العالم من هذه المنظمة.

يحتل مبنى المنظمة أكثر من ثلثي مساحة الجزيرة؛ لذلك كان التجول في بعض مرافقها بالسيارة أمراً محتوماً، سألتُهُ قبل أن يأخذ بي جولته التي اعتاد أن يفعلها عما إذا كان من الأفضل أن نبدأ من المبنى الرئيس المقابل لباب المركز معقباً على أنه من الطبيعي أن تبدأ الجولة من هنا، لم ينزعج مني رغم أن سياق حديثه كان يفيضُ احتجاجاً واستنكاراً على تدخلي السافر في البرنامج المعد الذي كان من اختصاصه هو، لا شك أنه ألمحَ لي بذلك محاولاً أن يكون لطيفاً أكثر من اللازم عند فهمي لما يقول حتى لا أتحرج مما بدر مني، ركبتُ معه إحدى عربات « الجولف» المخصصة في تلك الجولات في ذلك اليوم؛ لأن بقية الأيام يستعاض عنها بقاطرات صغيرة مكشوفة تتسع لخمسين راكباً تقريباً ليسع عدد الزوار، كنتُ منشغلاً عن تلك الأجواء الساحرة في فناء المركز الواسع بحدائقه الجميلة وتماثيله الرائعة بين تسجيل حديث

المرشد والاستماع إليه وتصوير المشاهد الماثلة أمامي. لم يتحدث بالتأكيد عن التاريخ الحقيقي لبدء فكرة الاحتفاظ بهذه العينات من الأمخاخ، إنما تجاوزها ليتحدث عن فكرة إنشاء هذه المنظمة وعن العقبات التي اعترضت نشوءها، تلك التي لم تزل إلى اليوم، ثم سرد لي عن سبب الصراع السياسي الديني مع العلم، وكيف تطور الأمر عبر التاريخ باختصارٍ كان ثقيلاً عليَّ؛ لأنني انصرفتُ مع أول تمثال مررنا به لإنسان بخلاف ما سبق، تحرَّجتُ من مقاطعته؛ ولكنني صمتُّ مؤملاً أن ينتهي قبل ذلك التمثال القادم على بعد ثلاثمائة مترٍ تقريباً ليحدثني عنه حتى أجد الفرصة لأسأله عن ذلك السابق، أمَّا إذا لم يفعل واستمرَّ فسأقاطعه بكلمةٍ زخرفتها في صدري ورددتها مراراً حتى تكون قريبةً من سياقه ذاك الذي احتجَّ فيه على تدخلي السافر في برنامجه: سردك التاريخي هذا، هل هو من صميم برنامجك؟ أم تذمر خارج عن إرادتك؟ لأنه إن كان من صميم البرنامج ما شأن هذه التماثيل؟ ولِمَ لم تقف عند هذا أيضاً؟ وما السبب في أنك لم تذكر شيئاً عن الأول؟

الحمد لله أن الرجل انتهى من سرده قبل أن نصل إلى التمثال وإلا لكنتُ ندمتُ فيما بعد أن قلت له ذلك؛ خاصةً وأنَّه ابتدرني وهو يشير إلى التمثال الآتي قائلاً: سأبدأ من هذا التمثال؛ لأنني أتشاءم إن بدأت في الحديث عن تلك المرأة صاحبة التمثال الأول، لستُ وحدي، المرشدون كلهم كذلك، ولا أخفيك بأن سياسة المركز نفسه اعتمدت ذلك في جميع برامجها؛ لكنني سأحدثك عنها حالما نصل إلى مبنى التجربة الحية، أو المستحيل ممكناً كما يسميه البروفيسور «موريس هايمانس»، لا تقلق لن أنسى ذلك، أمَّا تمثال الكلب ووحيد القرن السابقين، فهي من قبيل ما يُعتقد أنه جالبٌ للحظ والحماية والتوفيق، الكلب يعني الحماية، ووحيد القرن يعني الحكمة والخلود، وهما يضفيان شيئاً من الجمالية في مكانهما من المدخل. يحدث ألَّا

نتحدث أحياناً عن الشيء المعلوم، أو ما نعتقد أنه معلومٌ؛ ثقةً بذكاء الزائر، وأملاً في ألا يشعر بالضجر حيال ذلك، لذا أنا أعتذر عن عدم شرحها في البداية، ولك أن تقدم لي الاعتذار حقاً لأن زوار الشرق الأوسط لم يسعدونا كثيراً بزياراتهم إلينا.

كنتُ أحاول ألا أبدو مغتاظاً قدر الإمكان، لغة الاعتذار التي كان يتحدث بها متعالية وتعزو ذلك التجاوز إلى خصوصيتنا نحنُ أبناء الشرق الأوسط بنقص المعرفة، والتخلف الجلي الذي يشكل هوةً رحبةً في عدم الائتلاف مع الحضارة الغربية بالأخص والعالمية عموماً. الجيد في هذا كلِّه أنني كنتُ حين حديثه هذا مشغولاً بالكاميرا أبحث فيها عن الصور التي صوَّرتُ بها تمثال المرأة قبل قليل؛ لأتأكد من جودة التصوير وعدد الصور إذا ما كان لائقاً بما سيكشفه هذا المرشد عنها، وإلا لبقيتُ طيلة الزيارة مستاءً من تلك اللغة التي تحدث بها معي.

توقف أمام التمثال، لم ينزل، أشار بيده وهو يتحدث بينما كنتُ ألتقط صورةً للتمثال الذي كان لرجلٍ كث الشوارب، بلحيةٍ غير مشذبةٍ على عارضيه.

«وليم مورتون» طبيب أسنان أمريكي، كان المسؤول الأول عن إدخال التخدير في العمليات الجراحية، صُنِع هذا التمثال نسخةً طبق أصله الواقع في مقبرته في بوسطن. الفريق العلمي هنا عبارة عن أطباء في الأساس؛ لذلك ليس من الغريب أن تشاهد تبجيلاً واضحاً هنا لزملائهم في المهنة، وليس من الغريب أيضاً حين يتم تبجيل أو تكريم طبيبٍ ما ألَّا تجد لهذا الرجل مكاناً بارزاً؛ لأنه يفرضه المنطق قبل زملاءِ المهنة والمتخصصين. لم يغص المركز بالتماثيل كما اعتقدتُ بالنظرِ إلى مساحته الواسعة وتتابع اثنين في جهةٍ منه بمسافةٍ قصيرة، ولم تكن كلها أطباء كما بدا لي حين تحدث عن

الطبيب مكتشف التخدير، فكان هناك تمثال عن نابليون بونابرت، وكارل ماركس مؤسس الاشتراكية، وجورج واشنطن، وبيتهوفن، وآخر أكبر مما سبق لأنشتاين ويرافقه وهو جالسٌ آخر أصغر منه كأنه ابنٌ له لتوماس هارفي الطبيب الشرعي الذي سرق دماغ أينشتاين بعد وفاته وقبل أن تُحرق جثته، هناك أيضاً تمثال لجيمس وات مخترع الآلة البخارية على الجهة المقابلة قريباً من أحد أبواب المبنى الرئيس، وآخر لأرنست همنجواي بجانب مبنى المكتبة الذي يقع في زاويةٍ بين المبنى الرئيس ومبنى التجربة الحية «المستحيل ممكناً» وعلى مشارف بوابة مركز الأبحاث المحاطة بفرقة حراسة، وكان يحجب مبنى مركز الأبحاث ـ غير هذا السور الشبكي بأسلاكه الشائكة ـ أشجار كثيفة ملتفة تخفي الطريق على بعد أمتار ليست بعيدة.

وينبغي أن نعرف أن المنظمة لو لم تفعِّل الجانب الترفيهي بحيث أن تركت للزوار مجالاً واسعاً في التجربة، وتسجيل ما يمكن أن يطرأ من التغييرات الفسيولوجية والعصبية لدى الزائر وإضافته إلى حقل دراسة تلك الشخصية أو ذلك العقل الموثق فلن يمكن للمركز أن يجني هذا الصيتُ وهذا التوافد وهذا الاهتمام وهذا المال الجمُّ، أقول هذا لأن المرشد أخبرني في عرض حديثه عن نيةٍ مسبقة لإدارة المركز الانصراف عن تلك الفكرة قبيل إنشاء المركز، ولا تزال إلى الآن تقاوم تلك النية في استنهاض همم الفريق المعارض لها بأن تقتصر التجربة على خاصة الخاصة ومتطوعين خاضعين لفحوصات دقيقة ومعايير معينة بحدٍّ ضيق، وأنَّ الهدف الأساسي من المشروع لم يكن ربحياً حتى يصبح الأمر مفتوحاً هكذا. ومعَ أني لستُ مع رأي يمينهم المحافظ هذا إلا أني أتفهم جداً رغبتهم في الخصوصية العلمية، والابتعاد بمشروعهم الناجح هذا عن أعين العامة خاصةً بعد فترة التجريب هذه التي تربو بقليل على نصف عام؛ لكن في المجمل لم يكن الأمر مفتوحاً للعامة هكذا كما يوحيه

حديثهم، لأن المبالغ الطائلة على الفرد الذي لا علاقة له ببعثة دبلوماسية أو علمية يتجاوز الطبقة الوسطى من الأغنياء فكيف برجل الشارع العادي الذي تلوكه الأفواه وتقحمه في حديثها متى ما شاءت حينما تعبر عن امتعاضها من أجل أن تكسب به أو عليه موقفاً أقوى. ثم إن الزيارات هنا مقننة ومنظمة بشكل يحافظ على مكتسبات المركز، من خلال: تخصيصها في أيام معينة من الأسبوع، وعدد معين للبعثات الدبلوماسية والعلمية فضلاً عن الزوار السائحين الذي هم في الغالب أشبه ما يكونون بالإقطاعيين زمن النظام الإقطاعي. حدَّثني المرشد عن أحدهم حينما تلبس عقل وليام فوكنر وقرأ روايةً لأحد الكتَّاب المعاصرين ـ لا تزيد عن ثمانين صفحةً؛ لسببٍ تقني يتعلق بسلامة العينة والحفاظ عليها من الخلل ـ فقال حينما انتهى منها: إنها جيدة على أي حال؛ ولكن لستُ أدري ماذا يريد كاتبها أن يقول!

وهذا تماماً ما كان يقوله فوكنر حين تعرض عليه نصوص الأدباء الشباب في خريف عمره: «إنهم يكتبون كتابةً جيدةً، غير أنهم ليس لديهم ما يقولونه».

نابليون بونابرت هو الآخر كان على موعد مع تجربة المستحيل ممكناً؛ لكنه كان متعززاً أكثر من غيره؛ إذ لم يظهر تماماً كما هو من التجربة الأولى، حتى أن الفريق أعاد فحص دماغه أكثر من مرة، ولم يتبين لهم خللٌ ما يصلون من خلاله إلى نتيجة واضحة إذا كان يعمل بشكل صحيح أم لا، وكانوا كلما فكروا بإعادته والاحتفاظ به في المتحف، يطفو إلى أذهانهم الطريقة التي مشى بها أحد الذين تلبسوه مرةً، كانت مشيةً غريبة بعض الشيء، حتى أنه بعدما أفاق من تجربته مشى مشيته الاعتيادية المختلفة التي لم يركز طاقم العمل فيها قبل مجيئه، لم يحدث ذلك الشيء مع مُجربين سابقين ولاحقين، فاضطر الفريق للاتصال بذلك الشخص وطلب منه إعادة المحاولة مرة أخرى، فكان أن مشى تلك المشية ذاتها، فاضطر طاقم العمل المختص بعينة

نابليون المضي أكثر في التنقيب عن تلك المشية، غير أن أحدهم اقترح أن يفعل الرجل ذلك في البهو المطل على البحر حتى يشعر كأنه في جزيرة القديسة هيلانة، تلك الجزيرة التي نفي إليها آخر أيام حياته، فتم ذلك وحدث شيءٌ غريب هذه المرة، أفاد للطاقم وللفريق بأن الدماغ يعمل حقاً بطريقة مختلفة لا زالوا يجرون عليها إلى الآن الكثير من الدراسات والأبحاث، ليس من بينها اقتصار عمل الدماغ على شخص دون آخر؛ لأن ذلك يتعلق بالوظائف الحيوية لأعضاء كل شخص وتطابقها ـ لا يُشترط أن يكون تاماً ـ مع وظائف العينة ، لستُ أعرف القليل عن هذا فضلاً عن الكثير؛ لذلك أرفقتُ في تقريري تقريراً علمياً مفصلاً عنه، ما أعرفه باختصار، أن الزائر إذا ما أراد أن يطبق تجربة المستحيل ممكناً، فإنه يجري فحوصاتٍ سريعة على وظائفه الحيوية لا تستغرق أكثر من ١٥ دقيقة حتى تظهر له النتيجة التي تحدد له العينات الممكن تجربتها من تلك القائمة الكبيرة. الشيء الغريب في تجسيم نابليون أنه كان ممسكاً على بطنه، كأنه يعتصره الألم، وكانت هذه إشارةٌ على أن عقله لم يتجاوز سبب وفاته من سرطان المعدة فظلَّ ممسكاً بيده عليه وقتاً طويلاً وعلى فترات متقطعة، إلى أن سأله أحدهم عما إذا كان بإمكانه أن يعقد لهم صفقةً أخرى كصفقة لويزيانا، فأجابه على الفور: تلك صفقةٌ محشوةٌ بالزرنيخ، لا لن أفعل أبداً.

الكثير من الشخصيات التي تمنى الناس أن يقضوا معها وقتاً هنا، لم يتسنَ للفريق أن يوفرها؛ لذلك أسباب كثيرة: من ضمنها تلف الدماغ كما كان في أرنست هيمنجواي وقد أطلق على رأسه النار، كذلك أينشتاين رغم أن له العينة الأشهر والتي سرقها الدكتور هارفي، استهلكت تماماً ولم تعد صالحةً للعمل؛ فضلاً عن تقسيمها الآنف من عدة أطباء. هتلر كان مثالاً جميلاً جداً لأن يُدرس كذلك؛ لكن احتراق جثته منعهم من ذلك، والكثير

أيضاً لأسباب أخرى: منها تقدم الكثير من الشخصيات المطلوبة عن بداية المشروع الذي انطلق قبل قرنين ونصف فيما يبدو، وفردية اتخاذ القرارات في البداية، وقلة الأشخاص العاملين، وأسباب سياسية ودينية كان لها دورٌ كبير في تجاهل الكثير من الشخصيات المهمة في هذا التاريخ، لكن هذا لا يمنع من نجاحهم في الظفر بأسماء كبيرة سياسياً ولعلَّ لها أجندات سياسية معقدة جداً أحياناً وفرض هيمنة حكومة على أخرى أحياناً أخرى، القائد العراقي صدام حسين أحد تلك الأسماء؛ ولعله العقل العربي الوحيد في المركز، كذلك جورج واشنطن أول رئيس لأمريكا كان يحظى باهتمامٍ بالغ مكتسب من أهمية الدولة التي رأسها في الغالب، فزيادةً على عينته المحفوظة يتوسط تمثاله أحد أركان سور المركز، وبالمناسبة ليس كل صاحب تمثال تحظى المنظمة بعينة منه للتجارب، كارل ماركس مثالٌ على ذلك، حتى أنَّ الفريق لم يستطع تعويضه بستالين المتوفى بجلطةٍ دماغية؛ لكنهم حفظوا للاشتراكية جانباً ـ وإن لم يكن رحباً ـ في بيكاسو الذي كلما عاد عقله للعمل أخذ ريشة ليرسم، والغريب في الأمر حقاً ـ فضلاً عن أنه لم يرسم شيئاً جديداً ـ أنه أعاد رسم لوحة العشاء الأخير لدافنشي بشكل مختلف عن طريقته التكعيبية التي عرف بها، لستُ أدري إن كان هذا تحولاً في شيء، أم أنَّ الرجلَ الذي يرسم عقله بانتظام بعد كل فترة توقف ـ وهذا غريب أيضاً ـ ليس بيكاسو، بالتأكيد ليس لدي دليل ولستُ أعرف في هذا الشأن شيئاً يستحق أن يثريَ معرفتك؛ لكن باستطاعتك أن تحجز موعداً مع المجموعة المختصة ببيكاسو، هي في العموم لا تتجاوز طبيبين وثلاثة فنانين تشكيليين. لا تقلق، تستطيع أن تحجز موعداً معرفياً تحضره عن بعد عبر شبكة الإنترنت تستطيع من خلاله أن تشبع نهمك منه كما تريد.

أقام البروفيسور هايمانس المؤتمر المعتاد للزوار عن مشروعهم العلمي،

في المبنى الرئيس، تحدث فيه عن فكرتهم الأولية وتأسيسهم لهذه المنظمة، كان يحاول أن يدافع عن علاقة ابتكار هذا المشروع بالجوانب السياسية التي هدد بها المركز مؤخراً دولاً وسيادات عسكرية وأمنية كانت على علاقةٍ خفيةٍ في هذا المشروع، وقال بأنهم شرعوا في هذه الفكرة بحماية سياسية لا أكثر؛ لأن المتطلبات في مثل هذا الاكتشاف كانت فوق مقدرتنا، وأن بعض من يزعم بأننا لصوصٌ محترفون أو ندعم عصابات محترفة كمافيا كانوا على علمٍ بهذا المشروع، بل وكانوا مؤمنين به جداً؛ لأنهم أرسلوا في طلبنا لحفظ عينةٍ من قادةٍ لهم ماتوا، ومنهم من أرسل لنا ليعرف الطريقة التي يُحفظُ بها مخُّ أحدهم، لم نفعل ذلك بالتأكيد؛ ليس حفاظاً على أسرار المهنة، أبداً؛ ولكن لأنهم لن يستطيعوا فعل ذلك وإن كانت الوصفة مسجلةً في فيديو. الأمر دقيق جداً، ولن يقوم به على أكمل وجه سوى هذا الفريق المتميز الموجود هنا.

ذكر لنا عن الطريقة التي يتم بها حفظ دماغ المتوفى، وشبهها بطريقة الفراعنة قديماً في التحنيط، وأنهم يستنشقون المخ بأنابيب ويضعونه في عينات حفظ مهيأة لذلك، ثم ابتسم وذكر لنا موقفاً طريفاً في أحد المحاضرات حين ذكر هذه المعلومة، قام أحد الحضور وكان طبيباً مصرياً وهتف مقاطعاً: مصر أم الدنيا، مصر أم الدنيا!

بعد تلك المحاضرة التي لم تكن مشوقة للكثيرين أمثالي انتهى بنا المطاف إلى مبنى المستحيل ممكناً، مبنى التجربة الحية، وكان لا يقارن بالنسبة إلى بقية المباني، إذ كان يمتد أحياناً ليطل على الشاطئ، وكان في حقيقة الأمر يشكل مسرحاً حقيقياً لممارسة العينة نشاطها الحيوي مرةً أخرى؛ لذلك بدا وكأنه جزيرة داخل الجزيرة. القاعة كبيرة جداً، ومرشدي يأخذني إلى قاعة العينات يميناً ولا يمهلني لأن أنظر إلى الغُرف الكثيرة المتراصة في آخر القاعة الرئيسة

وقد تشكلت أبوابها بأشكال مختلفة، على بعضها تماثيل أصغر حجماً من تلك التي في الخارج، عدد لا بأس به يدخل إلى بعض تلك الحُجر، كانوا يبدؤون التجربة حسبما قال لي المرشد بعد ذلك. هل أقول إنه شيء مبهج وغريب في نفس الوقت، أن تشاهد عقولاً ـ لا يفصل بينك وبينها سوى زجاج شفاف ـ ساهمت في أن تمارس حياتك الطبيعية على هذه الأرض بأفضل طريقة ممكنة؟! إذا كان هذا الكلام ليس كافياً وأنا أعتقد في حقيقة الأمر أنه كذلك، فتخيَّل فقط أنَّك تعيش في عصر لا يوجد فيه كهرباء، ولا مخدر « بنج» للعمليات الجراحية، ولا بنسلين، ولا آلة البخارية، ولا نظرية نسبية، ولا طائرات ولا نظرية حركتها، ولا ديناميكا حرارية، ولا حتى أمريكا، على أن مكتشفها لم يكن من بين الموتى المتواجدين في هذا المكان.

أخذ بي جولةً سريعة ليعرِّفني على المشاهير الأكثر أهمية: أديسون، وفرويد، وماركوني، بيتهوفن، الكسندر فليمنج مكتشف البنسلين، فيرمي مصمم المفاعل الذري، والكثير ممن وثقتُ أسماءهم في المرفق، لم يكن المرشد ليعرض عليَّ تجربة المستحيل ممكناً من تلك الفئة لو أنني سألتُهُ ذلك؛ لأن المكتشفين والمخترعين ومشاهير الطبقة الأولى عيناتهم فضلاً عن أنها مخصصة لأكاديميين مختصين في علم الأعصاب فهي محصورة لدبلوماسيين من طراز مختلف فيما يبدو، ورجال أعمال يستطيع أحدهم ـ على الأقل ـ أن يشتري هذه الجزيرة بمبلغ لا يقتطع من ماله شيئاً كثيراً، أمَّا أنا فكنتُ على حساب صحيفتي، والتي هي بدورها لم تدفع للمركز، ليس بحكم العلاقة مع أحد مديريه فقط؛ ولكن لأنها الصحيفة الوحيدة من الشرق الأوسط التي سُمح لها بتغطية هذا الحدث بشكل واسع، عرفتُ هذا بلطف شديد من المرشد دون أن يُشعرني بأن ما قاله استباقاً لما قد أطلبه منه. أشار لي على عينةٍ من قسمٍ آخر خالٍ من الزحام المألوف في الأقسام السابقة، توقف عند عينة

وبجانبها صورة امرأة، لم تكن صورة وإن شعرتُ في البدء بأنها صورة؛ لكنها لوحة مرسومة بيد رسام ماهر، قال لي: هذه ريميديوس الجميلة! النبذة التي بالأسفل خاصة لهذه العينة لم تكن نبذة بالمعنى الحقيقي، هي عبارة تحذير تحمل طابعاً غريباً: احذر لعنة الجمال من ريميديوس!

سألتُهُ عنها، فقال: إذا كنت قرأت مائة عام من العزلة لماركيز ستعرفها. ولأنني واثق بأنك لم تقرأها لأنه لو كان كذلك ستتعجب من أن الأمر أصبح حقيقياً، وأنه إذا كان كذلك كيف وجدوا عينتها وهي صعدت للسماء بروحها وجسدها كما تعتقدونه أنتم في يسوع؟

ببساطة هذه ليست عينتها، هذه عينة أحد من أصيبَ بلعنتها بعد صعودها للسماء وبعد ما صَنع لها ذلك التمثال في الخارج، ذلك التمثال الذي لم أشأ أن أحدثك عنه في البداية لتشاؤمي، لن أتحدث أكثر لعلك تعرف أو عرفت الآن أنه كان معاصراً لنا، والأحاديث المنسوجة وفق تلك اللعنة كثيرة جداً، قد لا أؤمن بها لكني لا أتحكم في مشاعري من أن ترضخ للشعور بالخوف جراء ذلك خاصة إذا لم أكن وحدي من بين المرشدين من يشعر بذلك، بالإضافة إلى عدد لا بأس به من العلماء القائمين على هذا المركز الذين يفترض بهم أن يؤمنوا بالعلم فقط لا شيءَ غيره.

«أنا لستُ سوى إنسانٍ على كل حال، ولأجل ذلك كان لا بد من أن أتجاهل تلك الأصوات في داخلي، تلك الأصوات التي كانت تؤنبني بين لحظةٍ وأخرى جراء ما فعلته بشأن تلك السفينة، سفينة غوستلوف. الكثير ـ منذ زمن وحتى الآن ـ كان يتحدث عن أن السفينة كانت تحمل مدنيين لاجئين وهاربين، وكانوا غالبيةً عظمى من النساء والأطفال؛ والكثير كان يعتبرني مجرمَ حربٍ ـ حتى من الروس أنفسهم ـ لكن كيف لي أن أهتم لذلك وأنا على مشارف أن ألقى حتفي بتهمة الخيانة؟! كان لا بد أن أقدم قرابين ثمناً لبقائي، وكان لا بد من أن أعمل على تجديد ثقة قادتي بي، ولو لم أكن

إنساناً حقيقياً لما فعلتُ ذلك، أنا لا أصدق الألمان كثيراً، كما أني لستُ أكذبهم تماماً، العدد كان كبيراً حقاً، لا زلتُ أذكر الكتل النافقة على سطح البحر حين سكنت الريح وهدأت الأمواج؛ لكن لا أظنه بلغ ١٠ آلاف كما تقوله التقارير مؤخراً، أشك في ذلك كما أني أقف محتاراً عن السبب الذي جعلهم يخفون ذلك الأمر، ولا يتوانون عن محوه من سجل التاريخ ككل وليس الألماني فحسب.....»

إلى ما قبل الاقتباس كان هذا التقرير كاملاً من كتابة مندوبكم الصحفي في فترة انتظاره ـ غير القصيرة لظرفٍ ما ـ إجراء الفحوصات الطبية ليدخل تجربة «المستحيل ممكنا» وإلى هنا كانت تجربته في «المستحيل ممكنا» إذ تلبَّس عقل ضابطٍ روسي ألقى طوربيد بحرياً على سفينةٍ عسكريةٍ ألمانية كانت تحمل لاجئين وهاربين مدنيين. عرض عليه مرشدنا خوض تلك التجربة بعدما رآه يقف جانب الخوذة التي كانت تغطي نبذة العينة فحدث أن وافق؛ وسجَّل أعضاء قسمنا « المستحيل ممكناً » ذلك الحديث الذي أدلى به أمامهم حين قام بالتجربة التي لم تكتمل لسببٍ لا علاقة لنا به؛ ولكنه لا شك يجعلنا نشعر بالأسف الشديد تُجاه ذلك. حين طلب منا التوجه إلى البحر وافقنا لعلمنا بأنه ضابط بحري؛ لكننا لم نكن نعلم أنه يريد الانتحار، ولم نكن نعلم أيضاً أن صاحبكم لا يجيد السباحة، فحدث ما لم يكن في الحسبان. نحنُ نتأسف أشد الأسف ونبعث لصحيفتكم الغراء هذا التقرير ومرفقاته، ونعرض عليكم الموافقة على سحب عينةٍ من دماغه مجاناً لنجري عليها دراسات خاصة لحادثة استثنائية كان فقيدكم بطلها، ولنضعها على واجهة قسم العينات الأكثر شهرة بجانب عظماء التاريخ، ونكرر اعتذارنا وأسفنا الشديد.

مع خالص التحيات.

منظمة عقول خالدة.

القطعة الأخيرة من القلب

بيدين مرتجفتين بجانب كوب الحليب الذي تتصاعد منه الأبخرة، يفتح منديلاً ملفوفاً بعناية، شفتاه ترتجفان أيضاً؛ لا يشعر بهما كما يشعر بيديه اللتين لا يملك إزاء ارتجافهما شيئاً، لا وقت لديه لأن يقاوم ذلك، كان يلتفت كثيراً نحو باب الغرفة، الممر على الأرجح، الجزء القريب من باب الحمام المفضي إليه بالتحديد. كان يلتفت، ويرتجف، ولا يستطيع أن يقف كما ينبغي، أو ينحني باستقامة، يشعرُ بالغثيان، ينضب ريقه فما يبتلع إلا أنفاسه المكتومة، وهو في ذلك كله يواصل فك ذلك المنديل عن الالتفاف بنفسه، الزمن يتملص بين منديله الذي لم يعد مطوياً وكوب الحليب الذي ما زالت تتصاعد أبخرته. هناك من ورائه في ذلك الجزء نفسه القريب من باب الحمام والذي يفضي إليه داخل الغرفة يقف ظل الزمن المتملص باهتاً ممتقعاً يودُّ أن تستأنف خطوته الأولى سيرها بأسرع وقتٍ ممكن. استجاب المنديل تماماً ليديه، صوت الماء في الحمام يطمئنه ولا يطمئنه، يبتلع شيئاً من ريقه وأشياء من قلقٍ تكور في بلعومه حتى أصبح شبيهاً بتفاحة آدم، تلك التي لم تبرز في حلقه قط.

بإبهامه الأيمن وسبابته ونظرة خاطفة إلى الجهة تلك يخرج حبة دواء صغيرة تفترش المنديل لوحدها، فيضعها في الكوب، كأنه يضع روحه المثقلة بذلك الزمن المتملص وظله الذي استأنف خطواته الأولى، وخوفه هو، خوفه من الخوف الذي سيقف حجر عثرة للطريقة التي أراد أن ينهي بها هذا الأمر. حسم التفاتةً أخيرة مع تحريكه الحبة في الكوب بملعقة صغيرة. توقفت الدماء في عروقه بغتةً، شيءٌ ما وقع في الحمام فأحدث ضجة، تبرز تفاحة آدم في حلقومه أكثر الآن، لم يسمع صوتها، فقط كان الماء الصادر

من المغسلة، خشي وهو يأخذ مكانه من المقعد المقابل للسرير أن يبدوَ شيئاً ما غير اعتيادي على سطح المشروب، الرغوة، ودَّ لو لم ترتكز في المنتصف، وتعود أدراجها إلى الجوانب؛ لكنَّ خوفاً ما تغلب في صدره على تلك الفكرة، الطعم، اللون ربما ـ رغم أن الحليب ليس من السهل أن يتغير لونه خاصةً إذا مزج بدرجة مختلفة من نفس لونه ـ بسرعة أضاق قطعة من السكر، فُتح الباب. لم يستطع الآن أن ينظر إلى ذلك المكان نفسه الذي ظل يلتفت إليه مراراً حينما بدأ في تنفيذ خطته، كما أنه لم يجد أثراً لذلك الزمن المتملص آنفاً بين منديله والكوب حتى يحرك قطعة السكر، لكنه على كلٍّ فعل ما يريد تماماً. خطرت أمامه تبتسم، تقول له قبل أن تتخذ مكانها من السرير لتقابله:

ـ عذراً، لم أشأ أن أسبب ضجةً ما، لم يكن ذلك بسببي على كل حال.

تحرز في هذه المرة أن ينظر إلى الكوب، كان ينظر إليها نظرةً فاحصة، لم تعتد ذلك منه مؤخراً، أشاحت بنظرها ثانيتين إلى التلفاز في الجهة الأخرى، ثم التفت إليه لتجده ما زال ينظر إليها؛ لكنه حينما التقت نظراتهما هذه المرة مال ببصره نحو «الصينية» التي تحمل كوبين وإبريق من زجاج أبيض، وفطيرة ملفوفة. أخذ كوبه القريب منه، لتجد هي الفرصة بأن تتحدث بعيداً عن اللغة التي يتحدث بها المشهد، قالت:

ـ اممم، لنرَ ماذا أحضرت لنا من فطور...

الانتفاضة التي تحدث داخله تصيبه برعشة يكاد لا يشعر بها، وبمغصٍ معوي يقبض أمعاءه كلما تراءت له صورتها وهي لا تكاد تملك من أمر نفسها شيئاً. أعجبتها الفطيرة، شعر بأنها طارت من الفرحة حينما أمسكتها بيديها وتهيأت لأن تقضم منها، شكرته. لم ينبس، ابتسم، هو لا يعلم أنه فعل ذلك، يده التي تمسك الكوب ترتجف، لحظت ذلك، تعجبت بنظرةٍ بريئة، كتلك النظرة الأولى التي أصابت قلبه منذ أن عرفها، وفسرتها له لاحقاً بأنها لا

تعني أكثر من ذلك. كلهم يقولون هذا حينها لا يودون أن يعترفوا بالحقيقة كاملة، هكذا ردد مؤخراً حينها تأكد أنه أصبح يصغي لنفسه. ابتسمت وأخذت تأكل من قلبه.. الفطيرة، هكذا تصور حينها أومأ لها برأسه أنه بخير وأخذ يرتشف من الكوب أكثر، داعياً إياها بطريقة غير مباشرة بأن تشرب. لم تبطئ هذه المرة، لم تخذله ككل مرةٍ أراد لها أن تشاركه شيئاً ولا تفعل، أو تفعله متأخرة مرغمة بدافع المجاملة التي تكنها له بعد أن اختارت له النوع الذي تعتقد أنه يناسبه من العلاقة، رشفت أول رشفة. رمقها بمزيج من كل المشاعر التي تشاركا فيها من البداية إلى هذه اللحظة، إضافةً إلى نقمته التي لا تبدو أنها تنتهي. طنَّت في رأسه حينها أخذت نفساً بعد الرشفة الأولى تلك العبارة التي خطها على باب غرفته من الداخل: أنا براقش أيها الحب، لكنني لم أكن البادئ دوماً.

ترشف الرشفة الثانية، كانت أكثر من الأولى، المغص الذي يقبض على أمعائه اعتصرها، والانتفاضة التي تحدث في داخله ارتفعت إلى الحد الأعلى، تجاوزت تفاحة آدم، المغص من الأسفل بقوةٍ يرفعها...همَّت بالرشفة الثالثة. صيحة هادرة، الصدى الذي تردده الجدران، الكوب الذي وقف ماساً شفتها السفلى، يده التي انكفأت على وجهها، دمعته التي تحجرت، صوته الذي لم يزل صوته لم يكن صوته، شيءٌ ما منه في الأعماق تحدث بأكثر لغةٍ مفهومة في مثل تلك اللحظات:

ـ لا تشربي

الزمن المتملص يندلق على ثوبه عوضاً عن الكوب، يضعه، يتجه إلى ذلك الجزء القريب من الحمام، يدلف، يغسل الجزء الذي اندلق عليه الزمن، ويخرج المنديل ذاته يمسح بها أثر الدمعة التي سقطت.

السيد حظ

دكتور أنا حظي عاثر.

هزَّ العيادة بضحكه حينما قلتُ له ذلك، ووضع سبابته اليمنى لا إرادياً على أنفه كأنَّه يمسح بها شيئاً سائلاً، قال:

ـ أخشى أن يكون ذلك بسببي.

ثم عاد يضحك مرةً أخرى. بدوتُ مغتاظاً أكثر من كوني متعجباً حينما سألتُهُ:

ـ كيف بسببك يا دكتور؟

بدا أنَّه تراجع قليلاً عن تلك الموجة الهادرة من الضحك حينما وجهتُ له هذا السؤال:

ـ يعني حينما جئتَ لي أنا خاصةً..

لم يتمالك نفسه مرةً أخرى من الضحك ورفع رأسه إلى أعلى مستوى حتى أني خشيتُ على رقبته من أن يصيب فقراتها شيءٌ ما في حالتها تلك، ضحكتُ بدوري ضحكةً خاطفة من الفكرة التي دارت برأس الطبيب، ثم قلتُ له بالهيئة التي بين الجد والهزل:

ـ لا، لا أقصد ذلك، أنا جئتُك لأني أشتكي من حظي يا دكتور. حظي عاثر، بائس، مفقود، متأخر دائماً.. سمِّه ما شئتَ، المهم أنَّه لا يخدمني بشكل جيد يا دكتور. أنت تعلم كيف يكون المرء دون حظ، هو ببساطة كاللاعب المهاجم الذي يفعل كل شيء في كل هجمة: يراوغ مدافع، يكسر تسلل،

يربك طريقة دفاعية كاملة؛ لكنه في الأخير لا يسجل هدفاً، فهمت يا دكتور!

ـ أجل، أتفهَّم تشبيهك هذا الآن أكثر من أي شيء آخر؛ لأنه ليس من السهولة أن يكون الحظ عاثراً لمجرَّد تشبيه صائب.

شعرت بشيءٍ غير مريح يتدفق من عبارته هذه التي لا تتقاطع مع محاولة فهم ما أريد قوله. توجَّه لي ببدنه الجالس كله هذه المرة رغم مكتبه الذي يفصل بيننا وقد بدت حافته تغوص في كرشه أكثر، كان بديناً نوعاً ما:

ـ واضحٌ من حديثك أنك مهتم بالكرة؟

فأردف حينما أومأتُ له برأسي أن نعم قُبيل علامة الاستفهام التي بدت على وجهه:

ـ ما فريقك المفضل؟

ـ النصر. أرأيت يا دكتور كيف أنَّ حظي عاثرٌ حقاً. يبدو أنَّك ستصدقني هذه المرة، فهذا دليل لا تشبيه.

ضحك هذه المرة ضحكة أكثر رزانة، الأمر الذي جعلها ذات حيوية أقل من سابقاتها، غير أنها ودودةٌ جداً لو تغير ترتيبها وأصبحت الأولى:

ـ حسناً، لنفترض جدلاً أن فريقاً كالنصر ببطولاته السابقة وجماهيره العريضة لم يستطع خلال عقدين على ما أعتقد تحقيق أدنى طموحات لأقل محبٍّ له؛ هل من الممكن أن يصبغ هذا الإخفاق الجزئي في هواية واحدة من هواياتك لون حياتك كلها وحظك منها؟!

ـ هو لم يصبغ يا دكتور، هذا الإخفاق كان ولا زال ضمن سلسلة حلقاتها مركبة من الخَبَث الذي يحيطُ بي فيربطُ على خياراتي، يعني لو لم يكن حظي عاثراً في الأصل لَمَّا مال عليَّ باتِّجاه النصر مشيحاً بي عن الشباب مثلاً وهو

من نفس المدينة التي أتعصَّبُ لها بغض النظر عن الهلال طبعاً. أنت حكمتَ يا دكتور على مثال سقتُهُ وجعلته في اعتقادك السبب الذي أعتقد به برداءة حظي بينما هو لا يعدو في آخر أمره أن يكون علامةً تشيرُ إلى الشؤم الذي يحف بي، تصوَّر يا دكتور أني كلما هممتُ بالذهاب إلى عيادة طبيب نفسي؛ لا أصل إليه في نهاية المشوار؛ وهذا لأني أعرج إلى ورشة لإصلاح سيارتي من الحادث الذي لا تُصاب به أكثر ما تُصاب إلا حينما أقرر الذهاب لمتخصصٍ يقلدني تعويذة هذا الحظ اللعين، أعني باختصار: كلما أذهب يصيبني حادثٌ لا يتجاوز أذاه سيارتي ولله الحمد، وهذا يفسِّرُ نوعاً ما تعجبي والانتشاء الذي أحاول أن أخفيه جراء وصولي هذه المرة وسيارتي دون ما يجري بالعادة؛ لكنه في جانبٍ أخر أغلب يثيرُ ريبةً ما في داخلي، شكاً لا يكاد يتزحزح عن صدري، من كان مثلي لا يشعر بالارتياح حينما لا تتعقد الأمور، وتأتي بكل يُسر وسهولة!

ـ يبدو أن لديك ما يستحق الاهتمام فعلاً. حسناً، قل شيئاً عن حظك العاثر، تحدث، أنا كلي آذانٌ مُصغية.

شيءٌ ما في طريقة الطبيب تشعرني بالاستفزاز البديهي وأنا أحاول أن أكتم على غيظي حتى لا يبدو مزاجي معكراً حينما أتحدث وقد نصبتُهُ أمامي شيئاً مستفزاً؛ فهو يحاول في قوله: «يبدو أن لديك ما يستحق الاهتمام فعلاً» أن يشعرني بأن موضوعي غير مهم في الأصل، وإني لو لم آتِ على ما يشوقه في حديثي لما أبدا شيئاً من التفاعل الحقيقي معي؛ لكنني أتفهَّم أساليب الأطباء النفسيين، فهم غريبو الأطوار دائماً، ومن غير الطبيعي أن يصدر منهم ما تتوقعه إلا في حدود ضيقة، ليست مشكلتي هذه من بينها، لا، والأدهى أنَّه يطلبُ مني أن أتحدث بعدما بدأ يصدر حكمه عن قناعة من مثالٍ واحد لم يأخذه كَعَرض، بل كمرضٍ ما جئتُ إلا لأشكوَ منه بقية الأعراض التي

بدوره كطبيب يعرفها.

ـ من المهم أن تعرف يا دكتور أنني لستُ عصبياً أو غضوباً في طبيعتي؛ لكنني أفعل ذلك أحياناً على شيء تافه لا يستحق ــ تجاوزتُ بسمته الخبيثة حينما شددتُ بصوتي على آخر كلمتين ــ وذا لأنني أراكم ما سبق، لا أنساه تماماً فأرتاح، ولا أتذكره دائماً لأتخلص منه بذلك الدافع المليء بالشقاء حتى لا ينتابني شعور المغتث حينما تجيش نفسه من الطعام، لوعة لا أكثر، كما أني أعترفُ بأنني كثيرُ السخط سريع اللوم، لا أعرف كيف تمتزج هذه الصفات مع بعضها؛ لكنها امتزجتْ فيَّ وانتهى الأمر. أنا في معرض تحليلاتي لما يحدث لي، أرى ذلك بسبب هذا الحظ العاثر الذي لا يخذل معناه المذموم بالنسبة لي أبداً، حقيقةً يا دكتور ـ قلتُ ذلك حينما رفع أحد حاجبيه يتهمني بالتهويل ـ والدليل على ذلك البارحة، أجل البارحة وهذا هو السبب الأخير الذي جعلني أعقد صفقةً مَعَ الموتِ في أن أفهم ماهية هذا الحظ حينما جئتك الآن، وكيف له أن يأتي عابساً إن أتى بعد زلةٍ وعثرةٍ ونومةٍ وغياب شبه أبدي؟! أتدري، لو كان هذا الغياب غياباً بمعنى العدم، أي: أنَّه لم يكن موجوداً من الأصل لما كان في نفسي شيء يتمنى وجوده؛ ولكنه عالقٌ بين الحضور والغياب، وهذا ما ينفطر به قلبي. أتمنى أحياناً ألا يكون هناك شيء اسمه حظ، حتى...

ـ حتى لا يرمي عليه أحدٌ إخفاقاته وانهزامه، أليس كذلك؟!

ـ أنت تتهمني يا دكتور دون أن تملك دليلاً حتى!

ـ حسناً، تفضل.

ـ البارحة كان في رصيد زملائي في العمل جميعهم بلا استثناء راتبا الانتداب السنوي، إلا أنا بالطبع. نحنُ على أعتاب عيدٍ يا دكتور، وهذا

ما يجعل وقع مثل ذلك علي أكبر، ليس هناك ظروف مانعة فجميعنا ذهبنا معاً وعدنا معاً دون أن أتخلف للحظةٍ ما من أجل أن يُحسم منه جزءٌ بسيط فضلاً عن المبلغ كله؛ إذن ليس هناك مشكلة جزائية. المشكلة كانت خطأ غير مقصود بالطبع، وضع تحت غير مقصود خطأً واضحاً حتى تتعرَّف به على مزايا حظي الذي أرمي عليه إخفاقاتي كما حاولت أن تُشير إلى ذلك يا دكتور. معذرة دعني أتحدث ـ قلتُ ذلك وأنا أشير براحة كفي على صدري امتناناً له من أجل ألا يقاطعني وكأنه فعل ذلك حقاً ـ المشكلة الأكبر التي واجهتها في حل تلك المشكلة هي أنها صدرت من قسم المحاسبة في عملي، وليس من البنك، وهو الأمر الذي يتطلب إجراءات أطول قد تصل إلى موعد راتبي الشهري القادم، أي: بعد أن يفرغ الناس من استمتاعهم بقضاء هذا العيد؛ ليتأهبوا لشراء مستلزمات العيد الآخر. هذه القشة التي قصمت ظهري، طبعاً وعدوني كما كنتُ أتوقع باستلامه بعد نهاية هذا العيد قريباً من راتب الشهر القادم أو معه.

طبعاً أظهر الطبيب شفقةً غير مسبوقة حتى أني خشيتُ أن يخرج لي من جيبه مبلغاً من المال كمساعدة؛ لكنه أخرج منديلاً وجعل يمسح وجهه، رغم أني لم أره يتعرَّق:

ـ شيء مؤلم؛ ولكنه يحصل والله يحصل.

ـ أعلم أنَّه يحصل مع الناس لكن بنسبٍ متفاوتة، ضئيلة، محدودة، لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يحدث فيها مثل ذلك التعقيد معي، ولا الثانية، ولا الثالثة. مرات كثيرة يحدث لي ذلك سواءً في عملي أم غيره، والموضوع لا يتعلق بالمال فقط، متطلباتي في الدوائر الحكومية يحصل فيها أضعاف ذلك، بطاقة الأحوال المدنية لم أستخرجها إلا بعد سنةٍ كاملة من تقديمي عليها مثلاً، كانت هناك أوراق ضائعة ومعاملات مفقودة لا علاقة لي بها أبداً،

هذه تحت أي مسمى أضعها يا دكتور؟! حينما سافرتُ أول مرةً في حياتي خارج المملكة إلى دولة جارةٍ لنا ـ هذا إن صح تصنيف السفر بأنه خارج المملكة ـ استوقفوني في الحدود لاشتباههم في اسمي، كان يحمل مثله أحد المطلوبين لديهم، مكثتُ ما يزيدُ على نصف الساعة، والمحرج في الأمر أني كنتُ واحداً من خمسين راكباً في حافلة نقلٍ جماعي ولستُ وحدي، لا تتصور حجم غضب السائق والركاب عليَّ، حتى إن بعضهم اقترح للسائق أن يعيد لي نصف المبلغ لأجدَ إذا ما فرغتُ سيارةَ أجرة تقلني إلى داخل البلد ثمناً لئلا أهدرَ المزيد من الوقتِ في تعطيلهم. كان أمراً صعباً للغاية.

القصيدة التي نظمتها من أجل أن أشارك بها في المسابقة المدرسية حينما كنتُ في آخر سنة من الكفاءة ولم تفز طبعاً، هيَ عينها التي تقدم بها صديق الطفولة السارق في الثانوي ليحصل على الجائزة الأولى، كان رجعُ ذلك عليَّ بأن تركتُ الشعرَ حتى لم أعد أعرفُ أصنع من جملة وزناً ولا من كلمةٍ قافية، بينما هو الآن شاعرٌ تتصدر قصائده أو قصائد أصدقاءه ــ لستُ أدري ــ بعض الصحف؛ رغم أنهم قالوا لي أنه هو من كتبها حقاً؛ لكن ذلك لا يهمني أبداً!

ــ كيف ذلك، هل سكتَّ عنه؟

ـ جميلٌ هو تفاعلك يا دكتور؛ ولكن السؤال الافتراضي ليس هذا، بل: لماذا فاز هو وخسرتُ أنا؟! جد لي أين الإخفاق الذي رميتُ به على الحظ في هذا؟!

حينما أتجول مع أخي في شارع قريبٍ من حارتنا، أو في شارعنا نفسه، أو على أحد الأرصفة التي نقطعها ذهاباً إلى أقرب متجرٍ من بيتنا، أو في نزهة برية، كان هو الوحيد الذي تتراءى له اللقيطة ليفاخرنا بها، ساومتْهُ أمي مرةً على إسورةٍ من ذهب وجدها على الرصيف إياه بصحبتي ـ وكانت أغلب

الأشياء الثمينة يجدها بصحبتي، هذا ليس إلا لؤماً واضحاً من حظي لا مراء - كانت حالتها جيدة جداً، بل أشبه بجديدة، تخلى عنها لأمي بمائة ريال، لم أحصل منها على هللةٍ واحدة؛ رغم محاولاتي السخيفة التي حاولتُ إقناع أمي بها، بأننا لقيناها معاً، وأنني أنا من دعاه في الأصل للذهاب، و.. و... اكتفت بأن وجهتني إليه لأحصل منه على نصيبي، لا أدري لِمَ أحسستُ بأن أمي في تلك اللحظات تحولت بشكل سريع إلى موظف في إحدى الدوائر الحكومية فَهِمَ بطريقةٍ ما أثناء تعيينه ألا يقضي حاجة المراجع من المرة الأولى، وأن يدأبَ في تحويله من موظفٍ إلى آخر إلى أن يعود إليه فيقوم بواجبه حينها. أمَّا أنا فلم أعد لأمي مرةً أخرى بعد رفض أخي القاطع بذلك الشأن. وهذا غيضٌ مِن فيض الخمسمائة ريال التي وجدها مرةً والخمسين التي لا تتمنع من أن تتلقفها عيناه بين فترةٍ وأخرى، حتى الكتبُ التي لا يشتهي أن ينظرَ إليها، هو وحدهُ من يجدها فيمدُّني بها على مضضٍ؛ لأنني أنا وحيدُ البيت الذي له علاقة بتلك الأشياء رغم أني لم يسبق لي أن وجدتها مرميةً أو منسيَّةً مثله. أنا لو سُئلتُ عن الحظ وتعريفه يا دكتور، لن أتجاوز هذه الحوادث بالذات مع أخي؛ لأنه لم يكن فيها جهدٌ مبذول، أو تقاعس واضح؛ حتى يتضمنَ خط سيرِ النجاح الطبيعي أو ينحرف عنه لآخر مفضٍ إلى إخفاق تفترضه القوانين، لا إلى شيء آخر يغيب عن العقل والمنطق!

- من الممكن أن يكون أخوك أقوى ملاحظةً منك، فلذلك تقع عينُهُ على الأشياء..

- فعلتُ ذلك مرةً، كان أخي معي.. لأنه قد دار بيني وبينه نفس المعنى الذي تتحدث عنه يا دكتور، أتعرفُ ماذا وجدت حينما ضاعفتُ من انتباهي للطريق؟! وجدت نصف ريال ورقي؛ لا أحد يعرفُ هذه الفئة بالتأكيد؛ إلا حينما يجدها مشقوقةً من النصف كما حصل معي؛ زد على ذلك بأني تعرضتُ

لكدمةٍ في ساقي حينما شددتُ أكثر من انتباهي بعد تلك الغنيمة البائسة حتى وجدتُني أثب على مسافةٍ لا بأس بها حينما اصطدمت برأس وتدٍ نسيه أحدهم لم أتبيَّنه في ذلك البراح القريب من المنزل. كان أخي شاهداً على ذلك.

دكتور، الأمر أكبر من مجرد قوة ملاحظة، الأمر أشبه بلعنة ــــ هُنا عاد برأسه إلى الوراء فجأةً وقد قطَّب حاجبيه كراهةً ــــ أجل، أشبه بلعنة حقيقية تلاحقني في أغلب قضايا حياتي الأساسية. قبل أن أعمل في عملي هذا، كنتُ قد رُشِّحتُ في مسابقةٍ وظيفية، وكان العدد الذي وصل إلى مرحلة القرعة قليلاً لا يتجاوز عشرة حسبما أذكر، حينما أدخل ذلك الرجل يده ليختار الفائز الثالث والأخير في الوظيفة وسحب الكرة، كانت الورقة التي بداخلها تحمل اسمي، أجل اسمي، لم أكن أصدق أبداً حتى أني تأخرتُ في القيام من مكاني، أحسستُ بأني كنتُ متعرقاً، خائفاً، ناجياً لا أعلم، نهضتُ؛ لكن أحدهم أحدث بلبلةً هناك عند المشرف بالضبط، أكملتُ طريقي، كان يُشيرُ على كرتي التي اختاروها، هو أحد المتسابقين في الصف الأول، حينما بلغتُهُم سمعته يقول:

ـ واضح أنها مميزة عن البقية، كما قلتُ لك أيها المشرف نحنُ نريد الإنصاف والعدل، نريد تكافؤ الفرص.

ـ كلامك صحيح؛ لكنني لم أتبين ذلك حين اخترتُها...

حدثت بلبلة لم أشأ أن أتدخل فيها، اجتمع المشرفون مع زميلهم الذي أجرى القرعة فاتفقوا على إعادة القرعة للاسم الثالث وأن يستبدلوا كرتي بأخرى جديدة لم تكن ناتئة من رأسها قليلاً كتلك التي كانت لي، كنتُ أشعر حينها بذاك الظلام الذي عادةً ما يُخيِّم عليَّ كلما حاولتُ أن أستشرف أملاً جديداً، بقيتُ في القاعة من أجل ألا أترك لضميري سوطاً يجلدني به وإلا فأنا على يقينٍ بأنني لن أسمع اسمي مرةً أخرى، وكان هذا ما حدث تماماً،

وأظنك قد خمنت في سرك أن المعترض هو فائز الإعادة!

حظي يخاتلني يا دكتور..

ـ عفواً، ولكن ماذا عن وظيفتك الحالية، كيف يخاتلك وأنت لا زلتَ تعمل بها حسبما ذكرتَ لي في أول كلامكِ عن موضوع انتدابك أو ما شابه؟!

ـ أمَّا هذه الوظيفة، فإني على استعدادٍ تامٍ يا دكتور أن أقسمَ لك بأنها ذنبُهُ الوحيد الذي لم يغفره لنفسه حين ذاك؛ بل عاد بعدها أقوى مما سبق وفي عملي هذا نفسه، تأخري عن الترقية أسبابه واهية وشخصية، انتقال كثيرٍ من زملائي إلى أماكن مفضلة ومرغوبة ومُريحة دون معايير إلا ما كان من حظٍ أو واسطة باستثنائي أنا والقليل القليل من الزملاء، لستُ الأفضل، وأجزمُ بأني لستُ الأسوأ؛ ولكن بالقياس على العدد الذي غادر كان من المنطق السهل ألا أكون مراوحاً في مكاني إلى الآن، كذلك التعقيدات التي أجدها في مطالباتي وحقوقي من إجازات وترقيات وانتداب ومكافآت سواءً أكانت عن عمد أو غير عمدٍ كل ذلك ينبئ بأنه ينتقم من نفسه فيَّ يا دكتور، كان راتبي في السنة الأولى مقتطعاً نصفه لذلك الساعي الذي توسَّط لي في وظيفتي، ولم يكن ذلك مكافأةً مني له لا سمح الله، بل هو شرطٌ رئيسٌ تعهدتُ بتنفيذه في ورقة وشهود حتى يُتم الرجل بعلاقاته المتعددة إجراءات تعييني الصعبة، وهذا الأمر الذي كان يغيظني بشدة حينما تدعو له أمي بين فترةٍ وأخرى، وهو الذي أخذ جزاءه وافياً من كدِّي وعرقي. هذا ما خرج عن سيطرة حظي كما رأيت يا دكتور، وإلا فإنني جربتُه في الوساطات فكان كما عهدتُهُ لئيماً متجدداً في مكره، ومختلفاً في عدائه كلَّ مرة، فكم ممن كان بيده أمر وظيفتي تقاعد من اليوم التالي الذي وعد أبي بتوظيفي فيه؟! أو انتقل إلى مكان آخر وقد سُحبت منه الصلاحيات؟! أو انتقل إلى رحمة الله؟! وهذا ليس إيغالاً مني في السخرية كما قد تبينه لي ملامح وجهك يا دكتور، بل هي

حقيقة، وأنا على كامل الاستعداد بأن أبرهن لك ذلك لو أردت!

اتضحت على ملامح وجهه أمارات الحرج، فمسح وجهه بمنديل سحبه من عُلبةٍ مُزيَّنةٍ كانت بجانبه، ثم أرخى عضلات وجهه فقال مبتسماً:

ـ يبدو أنَّك بدأتَ تضيقُ بي ذرعاً!

ـ أبداً؛ ولكني أدافع عن نفسي وعمَّا أقول لا أكثر يا دكتور!

ـ أنا لم أسخر، كنتُ فقط أحاول أن أستوعب الأمر. صدقني لا مجال للسخرية هُنا حتى لو كنتَ كاذباً!

عبرت لحظةٌ من الصمت ثقيلة على كلينا، لم يدرِ هو ما يقول، ولم أعرف أنا إلى أين أتوجه بدفَّة الحديث، لكنَّه عاد فابتسم بسمةً كانت لها معنى شريفاً في قاموس النفس الإنسانية التي كان عليها مدار دراستهم وأبحاثهم وعملهم، فابتسمتُ بدوري وشعرتُ باندفاعٍ مضادٍ لما كنتُ عليه قبل قليل، فقلتُ:

ـ معذرة، يبدو أنني أسأتُ فهمك، أو أنني اندفعتُ قليلاً خلف مخلَّفات حظي اللعين في نفسي، حظي الذي انتصب لي شيطاناً مريداً دون أن يتركني وشأني على الأقل، هو يريد أن يلحق بي ضرراً ما، يوهمني بأنني لن أرتشف منه سوى ماء الحياة؛ حتى إذا تجرَّعته بطمأنينةٍ كان سمَّ الموت البطيء الذي يعجِّل بنفسي أن تهلك وهي حيةٌ، في الأمر شيءٌ أجهله؛ لكنه أقرب إلى اللعنة، هذه لعنةٌ يا دكتور!

ـ ما الذي جعلك تعتقد بذلك. أنت تؤمن بالله عز وجل ولا شك، ولا ريب أن هناك أمور تحدث لا ندري ما حكمة الله فيها؟ لا تتحدث بمنطق اللعنة، يجب أن نوكل أمرنا له سبحانه؛ لأنَّ فيها يقدمه لنا ويؤخره علينا خيرا لا نعلمه حين تحجبنا الابتلاءات عن رؤية الحقيقة!

ـ جزاك الله خيراً يا دكتور؛ لكنني ما أتيتُك هنا حتى تقول لي ذلك.

معذرة، أنت لست رجل دين ولا متخصصاً في أحد علومه حتى تسند رأيك على علمٍ وبينةٍ، أنا جئتك من أجل أن أعرف رأي العلم فيما ينتابني من ضررٍ في روحي، العلم الذي درستَه يا دكتور، واجتزتَ فيه مراحل حتى وصلتَ هذه العيادة.

أنا من حكَّ شعره أثناء تلك اللحظات، شعرتُ بأنني قاسٍ جداً في كلماتي، لم أعرف كيف من الممكن أن آتيَ بمعناي حين أودعته ذلك السياق، لم أشأ أن أنظر في وجهه كثيراً حتى لا تؤلمني علامات حرجه كما حدث منذ قليل، أشحتُ بنظري عن علبة المنديل، خشيتُ أن يسحب منها منديلاً آخر، واضح أنَّه لا يتحمل مثل هذه المواقف، أشْفِقُ عليه كثيراً كلما تكَّور خداه بتلك الطريقة الـ.. أتممتُ:

ـ معذرة، أنا متوتر، أتمنى ألا يغضبك كلامي، لكنني لو أردت رأياً دينياً اتَّجهتُ لأصحابه، أنا آخذٌ بالأسباب، وحينما لا أجد ما يقنع سأفوض أمري إلى الله، لا أخفيك أنني في البداية ركنتُ الأمر على أنَّه من الابتلاء الذي يمحص الله فيه عباده، كانت أمي وأختي تدفعاني إلى الإقرار بذلك؛ لكن في نفسي سجيةً من طبعها ألا تهدأ بذلك خصوصاً وقد تجاوز الأمرُ محض الابتلاء في ظني، فاعتقدتُ بأنني أصبتُ بدعوةٍ من أحدهم ظلمتُهُ وأنا لا أدري، أو لا أذكر، وها هو ربي يعاقبني بشأنه، أو بشأن ذنبٍ لي اقترفته فقضى الله ألا يباركني أبداً. أعرف أن هذا لا يعنيك في شيء؛ ولكن هو من ذات الباب الذي أدرتَ أنت رتاجه أولاً، ولما انتهيتُ إلى ذلك الصراع الذي ما زال يفني فيَّ بقايا من بهجة روحي نويتُ أن أكون عملياً أكثر، منظماً أكثر، فقررتُ أن أدخل البيوت من أبوابها.. احم، يبدو أنه أحدهم ينادي باسمي!

ـ أين؟

ـ في الخارج يا دكتور.

ـ لم أسمع شيئاً، أخشى أنك تتوهم!

لم أشك لحظةً واحدةً في حياتي بقدراتي العقلية مثلما شككتُ تلك اللحظة، كان هيئته وهو يقولها تزعجني جداً، ربما لا أفهم كثيراً في علم النفس وما استُوْحِيَ منه؛ لكنني أثق كثيراً في تفسيري لسلوكيات كثيرٍ ممن أتعامل معهم. كان على طرف شفته اليمنى طيفُ ابتسامةٍ تحملُ ما لا أستطيع وصفه من الشفقة والعطف حيالي، وهو الأمر الذي دعاني إلى أن أرتاب للمرة الثانية في حياتي كلها بقدراتي العقلية، لا أدري هل كانت شفتاي جافتين حينها؟ أم أنَّ لعابي عَلِقَ بأولِ كلمةٍ مني كادت تخرج في خضم هذا الموضوع؟ لكنني عدتُ من جديد، واعتدلتُ في جِلْستي عقب أن كنتُ منتصباً منذ خشيته التي عبَّر عنها. حاولتُ أن أبدو جاداً دون غضب، رغم أنَّ دخاناً ما يصعدُ من داخلي أخشى أن يُرى. كلمة « تتوهم » ثقيلة على مثلي، وعلى أي مريضٍ نفسي في زعمي، حتى لو كنا كذلك حقاً، لِمَ لا يتعلم بعض الأطباء التأنق في الكلام كما يفعلونه في ربطات أعناقهم؟! كان من الممكن أن يقول: أخشى أنك تظن ذلك، ها، أليست لطيفةً تتهادى على قلبك وإن كانت تحمل المعنى الذي تخافه دائماً، هذه لحظةٌ لن أنساها على كُلِّ حال:

ـ أمَّا أنا فسمعتُ، وما جئتُ هنا أشتكيك من أنني أسمعُ أصواتاً لا يسمعها غيري!

ـ ما أسأتُ لك؛ لكنك تسيء الفهم غالباً من خلال محادثتي معك، لم تحسن الظن ولا مرة، وفي كل مرة كنت تعتقد أنَّك أنت الوحيد الذي يفهم، الوحيد الذي يدرك أنه في الحسبة الرياضية ١+١=٢، الوحيد الذي يتعامل مع حظه بتقية، ولا يثق بأي شيء في هذه الدنيا سوى..

ـ مهلاً، هل تسمع؟ إنه اسمي

ـ لا، ولن..

ـ اسمع، اسمع يا دكتور الآن..

ـ لن أسمع..

من أجل ألا أشعر بالجنون اتَّجهتُ صوب الباب مسرعاً لأفتحه؛ لكنه فُتِح في وجهي، وإذا بموظف الاستقبال معه ملفي قائلاً:

ـ أنت هُنا!

لم يكملها تماماً حتى نادى بأعلى صوته على أسماء لم أذكرها، مردفاً:

ـ المريض ٣٦٣ هنا، بسرعة تعالوا!

ـ أنا لستُ مريضاً يا أخي، صدقني أنا فقط شعرتُ بأن الحظ قليلاً... لم يمهلني أمسكني من ذراعي وحاول أن يسحبني خارجاً، قاومتُهُ بشدة، وأنا أحاول أن أشرح له الأمر، لم يستطع أن يجذبني معه للخارج، كما أنني لم أستطع الإفلات منه، فالتفتُ إلى الدكتور على عجل:

ـ يا دكتور، قُل له الحقيقة بالله!

لا أعلم ماذا حلَّ به وقد انتصر عليَّ الموظف في لحظة التفاتتي تلك فسحبني بمساعدة الممرضين؟ الغريب أنهما دخلا العيادة ثم أقفلا بابها دوني أنا وموظف الاستقبال خارجاً:

ـ أقسمُ بالله..

ـ لستَ في حاجةٍ لقسم يا أخي، أنا لا أقصدك أنت، كنتُ أقصد المريض الذي بالداخل؟

ـ أي مريض، لا يوجد غيري يا أخي، أنا والدكتور..

ـ الدكتور وليد لم يأتِ أصلاً، اعتذر قبل قليل، وكنا ننادي عليك من أجل ذلك!

كلوحةٍ فارغة وَضِعْت في مكانٍ تتشكل أهميته وقيمته من وجودها، أو كرأسِ أحدهم وقد أتى الموسى على جزءٍ من جلده ولحمه فدخله الهواء النقي ليشعر بدُوارٍ عجيب، جدُّ عجيب، كان هذا بعضاً مما شعرتُ به في تلك الأثناء، وما زلتُ لا أدري ما الذي جاء بي إلى المستشفى أصلاً؟ ثم لِمَ كنت في تلك العيادة مع الدكتور؟ وعن أيِّ شيءٍ كُنا نتحدث؟ للحقيقة لم أكن أدري عن هذا كله؟ ثم هذا الواقف أمامي الآن، ما الذي يريده مني؟ ومن أوقف الثاني ليتحدث معه؟! لماذا نحنُ واقفان واجمان هكذا؟ ما هذا؟ ما الذي يحدث؟

ـ اسمع يا أخي.. هذا الذي بالداخل..

الطبيب يصيح، شيءٌ ما في خاطري انكسر جرَّاء أن سمعتُ ذلك..

ـ ليس طبيباً أبداً، هذا مريض لدينا مُصاب بفصام أو ما شابه، يتقمص دور الطبيب دائماً، فلذلك خشينا عليك منه؛ لأنه يكون عنيفاً أحياناً، لكن الحمد لله على السلامة، عموماً الدكتور، اعتذر إذا أحببت أن نسجل لك موعداً الآن مع طبيبٍ آخر، أم مع طبيبك غداً!

تمَّت

٢١/ ١٠/ ٢٠١٣م

الحمامة التي شاركتني العش

الحمامة لم تكن جائعة كما توقعتْ، ولم تكن بحاجةٍ إلى الماء أيضاً كما خمنت زوجتي. فقط كانت تقترب مني حد الالتصاق لتتمسح فيَّ، أو تدع بيني وبينها مسافة فاصلة لا تشعر معها بالأحرى أني بعيد، كان ذلك فيما بعد دأبها معي، وكان أيضاً أن أحدث ذلك الشيء تحولاً في حياتي.

الأمر بدءاً لم يكن بتلك البساطة التي ظننتها، ولا بذلك الظرف الذي توقعته؛ لكنني بخلاف ذلك التساؤل الذي يؤرقني عن الفكرة التي قبلتها طواعية بأن تظل الحمامة معي دون مراعاةٍ للغرابة التي حدث فيها ذلك، أو الكيفية التي تظل بها معي بحيث ألا تفارقني لحظةً واحدة؛ كنتُ أشعر أنني أرتبط بشيءٍ ما، غامضٍ في الفترات الحالكة التي أتكور فيها على نفسي، قريب في بعض الصباحات التي أشعرُ فيها بأنني شخص آخر جديد انطلق مني، مثير للاشمئزاز في هجمةٍ مباغتة لمزاجي حين يتعكر فجأةً من شيءٍ لا أعرف كنهه.

كانت بيضاء مرقطةً بسواد قليل حول رقبتها وأسفل جناحها وقريباً من الذنب. رشيقة، لستُ أدري كيف يكون ذلك في الطيور أو الحمام، لكنها الكلمة التي تندلق على لساني حينما أريد أن أصف حقيقة جِرمها واقفة، وحين تمشي كذلك. نظراتُها وادعة، كأنها ـ لو كان لي أن أجسد شيئاً معنوياً ـ حديث ضميري حين أنسى لفترةٍ نفسي في ركنٍ ما موطئٍ ما، حدثٍ ما، فأذكرني على اشتياقٍ لأن أجمع أجزائي وأنضم إليَّ.

زوجتي لم يعجبها ذلك، لم تكن هي الوحيدة قطعاً، طلبت مني أكثر من

مرةٍ أن أخرج هذه الحمامة من المنزل، ربما كان خوفها منطقياً، أو غيرتها، لستُ أدري؛ لكنها لا شك لم تستلطف أن تشاركنا الحمامة نومنا في الغرفة. صباح ذلك اليوم أظهرت رحمةً وشفقة بعد أن أفزعها وجود الحمامة بالبيت، وهي التي كانت تريد أن تفاجئني باستيقاظها عند عودتي، فاختبأت وراء باب المطبخ؛ لكن قصد ترويعها هذا انقلب عليها حالما خفقت الحمامة بجناحيها ورائي عند طاولة الطعام. تعاتبني زوجتي فيما بعد: أن الأمر زاد عن حده؛ إذ كانت الحمامة ترافقني في أرجاء الشقة كلها باستثناء الحمام الذي كانت تقف على بابه حين أكون فيه.

وبصرف النظر عن الحالات التي تبدو فيها حمامتي شخصاً عاقلاً، فإني لا أتوانى في الانسياق لما تبديه من أن تكون معي طوال الوقت، حدث في المرة الأولى التي أغلقتُ عليَّ وزوجتي باب غرفة النوم أن فعلتْ ذلك بعد عدة محاولات باءت بالفشل في أن أجعلها خارج الحجرة، مرةً في المطبخ، وأخرى في الحمام، وثالثة في البيت كله دون هذه الغرفة. كنتُ كلما أودعتُها مكاناً ورجعت أدراجي تبعتني بسرعة فائقة حتى إنها لتصل إلى باب الحجرة قبلي، فابتسم من ذلك ومن صيحة زوجتي في الداخل. في المرة الثانية تعلقت طائرةً بأسفل ساقي من الخلف. هدأتْ حالما وقفت، ثم جلستُ مكاني من الصالة؛ لأستأنف حيلة أخرى، زوجتي من فوق السرير تناديني، أعدها بالمجيء، تتحدث بتفصيل ــ كأيِّ امرأة ــ من هناك عن هذا الأمر. لم أنتبه كثيراً لما تقوله، خطر لي فجأةً أن أجري باتجاه باب الشقة ثم أعود بسرعة متجهاً إلى الحجرة لينتهي هذا العرض مؤقتاً، كنت أعتقد أنني سأفوتها بتلك الحيلة. الغريب أنها لم تتحرك إلا حينما عدت قاصداً الغرفة؛ لكن رغم ذلك استطعتُ الدخول من دونها، ولستُ أدري لمَ تباطأت هذه المرة؟! زوجتي حين استلقيت بجانبها أخذت تتحدث عن مخاوفها وغرابة ما يجري، كانت

هذه المرة أكثر جديةً في التعبير عن مشاعرها من المرتين الأوليين، أخذت تسرد لي شيئاً من التبريرات عن هذه الغرائبية: مرةً أنها قد تكون جنيةً عاشقة ـ كانت لا تتجرأ أن تقول ذلك دون أن تبسمل ـ وأخرى تزعم أن في الحمامة ما قد يدل على شيء لا بد أن ألتقطه قبل أن ينكشف حتى لا أقع في الفخ. لم تكن وحدها من يشعر بذلك، أمي قالت لي شيئاً عن حمامةٍ وأنا صغير، لا أتذكرها، كنتُ قد كسرت رجلها من دون أن أدري، وتعوذتْ بالله أن تكون هذه الحمامة من سلالة تلك التي كسرت رجلها حتى لا تثأر مني. أخواتي اشمأززن من الأمر بُرمته وخفنَ عليَّ مع أمي ونصحوني بزيارة أحد الرقاة، اعتاد جيراني وزملائي في العمل أن يشاهدوها معي دائماً، ظنَّ جيراني أول الأمر أنني سأربي حماماً في سطح العمارة بعد أن حدث خلاف بيني وزوجتي في تلك الليلة حين عرفتْ أني فتحتُ لها الباب وسمحتُ لها بأن تشاركنا المنام في الركن القريب مني، كنتُ قد جلبتُ لها حبوباً خاصة، وظللتها بقطعة خشبية في إحدى زوايا السطح، ولما أن اعتادوا على مشاهدتها معي خمنوا أنني بائعٌ مبتدئ، استوقفني أحدهم في منتصف السلم صاعداً إلى شقتي بصحبتها، وسألني عن سعر البيع؛ لأنَّ ابن أختٍ له يحب تربية الحمام، وقد رأى جاري بأن حمامتي هذه نادرة وتستحق أن تنضم إلى عشة ابن أخته. قبل أن أخبره أنها ليست للبيع، سألني عما إذا كانت ترقص أم لا؟ أتذكر جيداً ضحكتي التي جعلته يشعر بإحراج شديد. زوجةُ جارنا أبي محمود اتصلت مرةً على زوجتي قبل أن تهجرني إلى بيت أهلها حوالي الساعة الـ ١١ ليلاً لتخبرها بأنها تتوحم على حمام محشيٍّ، وبخلاف المطعم القريب المختص بهذه الأكلات الذي كان مغلقاً لم تكن حمامةً على وجه الأرض أليق بشهوتها سوى حمامتي. أصدقائي رأوا في الأمر ظرافةً لم يلبثوا فيها بعد أن اعتبروه أمراً مخيباً يتعلق بمصيري خاصةً بعد أن أصبحت وحيداً كضحكة فارةٍ من أجواء مأتم. الأمر ليس عناداً كما يعتقدون جميعهم؛ لأنه لو كان كذلك ما

كنتُ في طريقي أكثر من مرةً لأتخلص منها؛ لكن لا يحدث ذلك. أجدها مرةً تسبقني إلى البيت قبل وصولي إليه منذ أن تركتها في عشيةٍ ما، وأخرى حين يشغلها عني أحد الأصدقاء لأنجو تردفني كظلي الباهت الذي فقدته لوهلةٍ ثم لم أعد أملك وقتاً كافياً للبحث عنه.

في مكالمة أحاول أن ألاطف بها زوجتي لتعود، تحدثني عن الأسباب المنطقية التي تعتقد بها وأدَّت إلى أن تهجرني، ثم ألمحت بطريقةٍ ما بأن عيباً يكاد يتحدث به الناس أكثر كلما أطلت علاقتي بالحمامة. سألتها عنه؟ أجابت بأن ليس حسناً ما أفعله على كل حالٍ. كانت أمها هي من قال بأنني لوطي، وأن علامة ذلك ارتباطي بالحمامة، وكيف أن الله لطف بابنتها وطهرها من ذلك الدرن وقدر لها أن تخرج؟!

المرة الأخيرة التي أردت فيها أن أتخلص من الحمامة كانت مملوءةً بدافع تراكمي مما سبق وخاصة هذا الذي قذفتني به حماتي وتبعتها فيه ابنتها، كنت قد ذهبت بها مسافةً بعيدة على طرف المدينة بداية طريق السفر شرقاً نحو الساحل؛ لكنني لم أقطع بضعة كيلمترات عائداً حتى أدركت أنني أشعر باختناقٍ شديد، كنتُ أغص بحزني على فقدانها، كنتُ أشعر أنها ليست حمامةً فحسب، ليست شيئاً أليفاً فقط، ليست معنىً لمعنى، ليست قيمةً محصورةً في العالم الذي دمجتْه مع عالمي، إنها شيءٌ يجمع ذلك كله ولا يؤدي إليه، شيءٌ يفوق أن أتصور له معنىً مرادفاً أو مناقضاً. حملتُها وأنا أبكي، راعيتُها أكثر من ذي قبل، شعرتُ بأنها أنا في كثير من الأوقات التي أمارس فيها حياتي، لم أعد آبه كثيراً بتلك النظرات التي يرسلها لي بائع المتجر القريب بين فينةٍ وأخرى، ولا ذلك التجاهل الذي يفتعله الجيران معي، ولا ما تعتقده زوجتي وأمها، وأهلي وأصدقائي، أبداً، أحببتُ أن أبادل الحمامة ما كان من المفترض أن أفعله من أول يومٍ تمسحت فيه بعنقي، فعلتُ لها كما يفعله الكهنة

للإلهة، حتى رأيتُها تكبرُ يوماً بعد يوم، أجل كان جسدها ينمو، حتى بدت في أول الأمر كبطة، ثم كبجعةٍ جميلة، ثم أصبحت في حجم نعامة، في تلك الفترة لم تكن تستطيع أن تلازمني كثيراً إذا خرجتُ من البيت، فقط تصعد معي أحياناً متباعدة إلى السطح، ثم حدث أن صرتُ أنظر إليها من أسفل، خشيت في ذلك الوقت كما خشيتُ ألا يحتملها سقف البيت، عرضتُ عليها أن أختار لها مكاناً مناسباً في السطح لتكون فيه، وأمكث معها ملياً، لم تبدِ اعتراضاً؛ لكنها كانت في اطراد نموها حين أردتُ إخراجها من الباب، حاولت وإياها، أثنيتُ رأسها - كانت أشبه بنعامة رقبتها على حد الباب العلوي - لكن عرضها منعها، جربت أن أخرجها بالعرض؛ لكنها كانت مربوعةً لا فرق بين عرضها وطولها، خشيتُ عليها أن تستمر في طولها فلا أستطيع السيطرة عليها، عانقتني، ثم مررت بمنقارها على رأسي فنمتُ قريباً من الباب. أتذكر ذلك الكابوس الذي حلمتُ به تلك الليلة، كانت الحمامة قد تحولت لديناصور، لم تكن أليفةً أبداً كما هي معي بحجمها الأخير، كان قد تحول منقارها إلى فكٍ كبير بأنيابٍ أربعة، كانت تضربني بجناحيها الذين تحولا لذراعين قويين، تلقيت ضرباتها بوهن، فهويت على مؤخرة رأسي كما كانت هيئتي في النوم، ثم انحنت عليَّ بفكها لتلتهمني، استيقظتُ فزعاً، لم أصدق ما أنا فيه لوهلة، ولم أشعر بشيءٍ غريب أبداً، لم تنم الحمامة عندي. لم تكن في البيت أصلاً، بحثتُ عنها في السطح، لم أجدها، تنبهت إلى نقطة دمٍ صغيرةٍ لم تكن واضحة قريبةٍ من مكان نومي، لمستُّها بيدي، فتناثر ريشٌ مرقم من السقف على رأسي، أحاول أن أمسكه لأتبين، لا أستطيع، يسقط الريش على رأسي بغزارة كمطر، أستلقي على وجهي وأبكي.

حكاية المشوار الأول

استطاع بعد أن فعل المزيد من الإجراءات التي لا يحبها أن يصبح سائق أجرةٍ خاصة لدى الشركة العالمية التي افتتحت مؤخراً في بلده. ربما كان شراؤه لسيارته الجديدة أحد تلك الإجراءات التي كان أكثر تصالحاً معها. حين تم تفعيل التطبيق على هاتفه، جعل يدور بعداد سيارته الجديدة قريباً من شوارع الحي الذي يسكن فيه، لم يستقبل طلباً، ذرع شوارع أخرى في الحي نفسه ليستقبل تلك النغمة التي ما زال لا يسمع صوتُها. وقف في شارعٍ فرعي كان صديقه الذي نصحه بالدخول في هذا التطبيق لا يزيد مكوثه هناك أكثر من خمس دقائق حتى يبدأ في رحلةٍ جديدة. ظلَّ هناك أكثر من نصف ساعة، أزجاها في سماع أغنيتين لم تعودا دافئتين، وحديث بارد في أحد الإذاعات التي لم يكن يسمع لها عادة، أغلق هاتفه وأعاد تشغيله، استأنف من غلاف مناديل معطرة وضعها كفاصل قراءة كتيب التعليمات الخاص بسيارته؛ لكن لم يصله شيء أبداً، شكَّ كدأبه في حظه الذي لم يحالفه التوفيق غالباً، شيءٌ ما يلازمه يفسد الأمور، يعقدها، وإن هي تمت لا يدعها تتم في صورة طبيعية، كان ينتظر مشواره الأول: كيف يكون؟ مع من؟ إلى أين؟ ما الحالة التي سيكون عليها؟ فكر في ذلك كثيراً حتى شارف يومه على الانتهاء وهو لم تسنح له الفرصة ليصنع حكايته الخاصة به.

تضاحك مع صديقه في اليومين التاليين ـ ولم يكن قد سمع نداءً بعد من خلال هاتفه ـ حين تحدثا عن هوية الحظ الذي يتعامل مع كلٍّ منهما في كل تطلعاتهما. قال لصديقه:

ـ ها أنذا لا جديد، لا بداية كالبدايات السائرة.

ـ على الأقل، أنت لم تبدأ في مشوار عزاء لميتٍ كما بدأت أنا.

المشكلة الحقيقية التي يشعر بالقلق أكثر إزاءها أنه لا توجد مشكلة فعلية في حسابه، هكذا أخبروه على مدى زيارتين قام بهما خلال ذلكما اليومين للمكتب الخاص بشكاوى السائقين واستفساراتهم، وعدوه من ثم بحل المشكلة وعرضها على فريق الدعم الفني.

الحكايات التي يقصها له صديقه عن الرحلات التي أقلها كانت تلهبه أكثر، تدفعه للاستطلاع، لسلوك هذا الدرب، للتجربة، الحياة تقوم على ذلك، بالطبع هو لا يؤمن بهذه المقولة كثيراً إلا في بعض الأحيان، عندما يشعر بدافعٍ خفي يقوده لأمرٍ ما. في الحقيقة صديقه لم يكن أحسن منه حالاً، وإن كان قد بدأ التجربة، إلا أنه زيادة على الجو الكئيب الذي بعثته أول رحلةٍ له، حصل في نفس اليوم على مخالفة سرعة تسببت بها راكبة كانت قد اتهمته حينما أراد اختصار الطريق بالتحايل لكسب مبلغٍ أكثر.

مساء اليوم الثالث، وقف في الشارع إياه، كان قريباً من الشقة التي يقطن بها، سمع صوتاً إضافياً قادماً من خلف المؤثرات الموسيقية لأغنية كان يشدو بها عبادي الجوهر، لمح هاتفه، كان لا يشير بشيء، عبادي يغني:

أنتِ سراب

ورملك الظامئ أنا

رنَّ هاتفه، كان جرساً عزيزاً لا يشبه أي نغمةٍ سمعها من قبل. دائرة كبيرة ملأت الشاشة، يجف خط قطرها في تنازل بعكس عقارب الساعة، كان عليه أن ينقر المنتصف، ليقبل، ليبتدئ المشوار الأول، فعلها، ثم أحس باضطرابٍ غريب لم يستطع السيطرة عليه، نفسه تكاد تثب إلى ما لا يعرف. لم يكن

الموقع بعيداً. المسافة بمجملها لا تتجاوز ٦٠٠ متر، وقف في نفس المكان الذي أشار إليه دبوس تطبيق الخرائط، كانت قدمه لا تثبت على الكابح، توتر مضنٍ يسري في أعصابه كما لو كان دماً يتدفق في عروقه، تعجب من ذلك؛ لكن تعجبه لم يكن كافياً لأن يدفع التوتر ولا بعضاً منه، انتظر قليلاً، حتى فُتح الباب المجاور، لتخرج منه امرأة تحمل معها طبقاً ملأ ما بين يديها، وضعته بجوارها حين جلست في المقعد الخلفي. لم ينطلق حتى أشارت له بذلك، كان من البلادة في ظل ذلك التوتر حتى ينتظرَ أحداً لن يأتي. قدمه ما تزال تنتفض كأنها محمومة، كانت سيارةٌ ما تغلق المسير إلى الأمام في ذلك الشارع المصاب بالحفر والمضمد بالحواجز التي جعلت منه أشبه بالممر، لذا اضطر في أول اختبار لعفته أن ينظر للوراء من مرتبته وهو يرجع بالسيارة للخلف. كانت شاشة الكاميرا الخلفية كافية؛ لكنه كان قد قرأ في الكتيب قبل يومين أنه لا يمكن الاعتماد عليها. المرأة لم تكن محجبة بالكامل كما دخلت السيارة، لم ينظر إليها على كل حال رغم أنه عرف ذلك. الصمت الخانق أثناء تلك الرحلة تمنى أن لو قطعه بتشغيل أغنية، أو بحديث يُعلم فيه الراكبة أنها تشاركه مشواره الأول، ستبارك له بالأحرى، وستطلب منه أن يوثق ذلك بصورة، توقيع، مقطع فيديو ينشره في أحد مواقع التواصل، فكَّر في ذلك ساخراً بشكل غير قاطع حين وصلت الفندق الذي كانت تقصده. شعر بسعادة عارمة؛ لكنها لم تبلغ حد الاكتمال، ها هو مشواره الأول؛ لكنه مضى وانتهى، كان عابراً فيما يبدو، لم يقف لبضع وقت، كان خاوياً لا يحوي المعنى الذي يعرفه أو يريده، لا يدري أيهما يفضل بالتحديد؟ رحل دون أن تباركه الحياة بعد، تقف وترسل له تحية مليئة بالتباشير!

هاتف صديقه، أخبره مبتسماً بالتفاصيل التي كان عليها: انطباعه عن الرحلة، عن الراكبة، عن الصمت الذي شاركهما دهشة التعبير بين غريبين

تقلهما دون الناس سيارة واحدة.

كان بالإضافة إلى اضطرابه السابق ذاك، بحاجة إلى خبرة يمتلكها مع الوقت حتى يعرف كيف يدير تلك الرحلات مع أولئك الشركاء الغرباء. لم يحفل ذلك اليوم بغير تلك الرحلة، لذلك أقام لها حفلاً بسيطاً مصغراً مع صديقه في مقهاهما المعتاد حين تشاركا طبقاً صغيراً من التيراميسو وفنجاني قهوةٍ تركية بدا وجهها كأرض سبخة.

انهالت عليه الطلبات فيما بعد، شعر بأنه يقوم بخدمة اجتماعية مميزة حقاً، لو لا أن تصبح نظرة المجتمع نفسه أكثر وعياً لتم لها ذلك. الأجر الذي يجنيه منهم لا يعني القيمة الاعتبارية للخدمة نفسها بكل ما فيها، لطالما آمن بذلك أثناء قطعه المسافات تلو المسافات مع أناس لا يعرف عنهم شيئاً سوى مجرد كلمات يتهامسون بها فيما بينهم، ويحصرونها في إطار محدد معه حينما يتحدثون إليه كسائق.

أقلَّ نساءً كثراً، كان صامتاً في أغلب رحلاتهم؛ لذلك حين يقف بسيارته لرجلٍ كان يشعر بسعادة خفية: سيمارس لسانه وظيفته الطبيعية. نقل الكثير من الجنسيات المختلفة، جاب بهم أرجاءً عديدة في قلب المدينة وأطرافها وفي الخارج منها أيضاً، اختلطت في سيارته روائح الركاب، معظمها كان نفاذاً، غلب على رائحة السيارة الطبيعية، أنفه أصبح حساساً أكثر. الرائحة هوية، أول نبذة مصغرة للتعارف، كان هذا على رأس اعتقاداته؛ لكن لم تكن تحمل روائحهم باقةً من معنى ملفت، كانت أرواحهم تزكو لجهةٍ ما، لأحدٍ ما، لوقتٍ ما حين يصطدم بها الهواء الساكن، عدا رائحتين لراكبتين نفر منهما وتمنى في قرار نفسه لو تنتهي رحلتهما بأسرع وقتٍ ممكن.

إحداهنَّ تركب معه، لا تعرف أين تذهب، يسألها عن وجهتها، تقول: أشعر باختناق، خذ بي جولة حول المدينة، واسلك ما تراه مناسباً من الطرق،

لن يقبل بعدها مثل ذلك الطلب، يجهل السبب تماماً رغم أن رحلته تلك كانت خفيفةً على نفسه كريشة. أخرى تجلس خلفه تماماً على عكس عادات النساء الراكبات معه دائماً، وجهتها في مكانٍ ناءٍ لم يكن يتخيله في ذهنه حين أوصلها إلى هناك، كان بيتاً وحيداً في ذلك الخلاء، تضيء على بابه إضاءة صفراء خافتة. نظر تجاه نوافذ الطابق العلوي كانت سوداء معتمة، لا أثر لنورٍ أو حياةٍ بها، كما أن هالة الضوء بالأسفل حين فُتِح لها الباب لم تكن واضحة تماماً، شعر بقشعريرة مريبة حين تذكر ذلك قبل أن ينام تلك الليلة، والغريب حقاً أنه بعد أن اشتم بداية رحلتها معه رائحة تبغ غريبة، سمعها تصدر صوتاً أشبه بالفحيح، تزفر من أقصى حلقها. سألها وهو ينظر لها في المرآة الأمامية بعد لأي: عذراً، أنا أشم رائحة دخان، هل تدخنين؟ اكتفى بإيماءتها الرافضة. كانت متوترة يتذكر ذلك جيداً، تنقب في حقيبتها كثيراً، تنقلها مراراً بين حجرها وعن يمينها بين المقعدين. أخرى قدمت عليه بلاغاً للشرطة وهي ماكثة في سيارته، تدّعي عليه بالاعتداء عليها كما هددته حين لم تعجبها قيادته البطيئة، كانت مستعجلة جداً، بشرتها سوداء مزرقَّة، عرف فيما بعد جفاف لعابه أنها مسؤولة عن إضاءات الكوشة في حفلات الزواج، كانت جريئةً جداً، جريئة للدرجة التي جعلته يعزف أياماً عن مزاولة ذلك العمل، رغم طمأنة الشرطي له ــ حين رد على بلاغها ببلاغ يتهمها فيه بادعاءٍ باطل ــ بأن انسحابها من المكان يلغي بلاغها، تنازل؛ لكن امرأة سمينة ذكرته بهذه الحادثة بعد مرور ثلاثة أسابيع تقريباً وهي تزفر توترها باتجاه النافذة، صائحة: قرف. طلبت منه الاستعجال، تريد المستشفى، متأخرة كعادات أغلب من يفتعل المشاكل مع السائقين، طلب منها بهدوء أن تطلب سيارةً أخرى؛ لأن سرعته الحالية لا يمكن أن يتجاوزها، ثم صاحت بتلك الكلمة. كان على يقين حين باح لصديقه بذلك أن كل من ينعت الناس والأشياء بالقرف يحاول دائباً أن يتخلص من العفونة التي تملأ ما بين جوانحه حين

ينفخ من أثر نفسه الخبيثة تلك الكلمات التي يصف بها موقفاً أو شخصاً ما. رجل لم يود الركوب معه، الذهاب للمطار يحتاج رفقة جيدة، استئناس مختلف، كان كلامه مقتضباً، ألغى الطلب أولاً حين رأى صورته، خشي بعد ثانيتين أن تفوته الرحلة وهو يبحث في صور السائقين الذين يود أن يطلبهم عن بشاشة، عن بهجةٍ تصطحبه باتجاه السفر، أعاد الطلب من ثم مكتئباً، تحدثا عن الزحمة، الشوارع، الهندسة المرورية للطرق، عن شركة الأجرة التي يعمل بها، عن المواقف التي مرَّ بها في تطوافه القصير نوعاً ما في هذه المهنة، عن ذلك الموقف الصعب التي تعرض له من قبل تلك المرأة الجريئة، عن نسبة ارتياحه التي تزيد حين يقل رجلاً، عن المدينة التي سيسافر الراكب إليها، عن شريط الأغاني المنوع الذي سأل عنه الراكبُ معجباً، فأخبره بأنه من صنعه، عن الجو الجميل الذي صنعه التآلف بينهما، تصافحا ثم وجد تعليقاً أولاً جميلاً في تطبيق الأجرة الخاص به. عائلة ملأت السيارة حتى لم يتبقَّ لذرات الهواء جزءاً تسبح فيه، كانت الخادمة وصبيَّان معها بجانبه في المقعد الأمامي، وأجساد مملوءة رخوة تتكتل على المقاعد الخلفية يرتمي عليها ثلاثة أطفال، أحدهم كان واقفاً طيلة الرحلة، حاجباً الرؤية عنه؛ الأمر الذي كاد يتسبب بحادث سير ربما لن ينجو منه أحد. عائلة متدينة لم يظهر من نسائها سوى عيونهن، شعر باختناقٍ وهو يمضي بهم إلى السوق، فاح الهواء القليل المحصور داخل المركبة، لم يحمل رائحة، لم يضعن عطراً كما يحدث حين تركب النسوة عادةً معه؛ لكنه لم يشعر بشيءٍ من الحنق أبداً حين أوصلهم.

تجاوز عدد رحلاته التسعين رحلةً، لم يشعر بشيءٍ معها من الاكتفاء، كان كلما اعتزل أياماً عن ذلك عاوده الحنين؛ لكن لا يعرف لماذا بالضبط؟ كما أنه لم يشعر مطلقاً رغم عدد رحلاته تلك بالألفة، أو الانخراط في عودةٍ إلى الحياة بطريقة ما، ظلَّ دائماً في ذلك الشارع إياه يشعر بالوحدة، وينتظر مشواره الأول الذي لم يبدأ به بعد.

ارتدادات العمر الفائت

فزَّ من نومه مسرعاً نحو السيارة، التقط المفتاح من سطح التسريحة ـ التي لطالما ظل يتساءل عن وظيفتها الحقيقية في حجرته ـ، كان ينزل من الطابق الثاني واثباً، أو أنه يكاد لا يلامس الأرض بالأحرى كطائرٍ على ارتفاعٍ منخفض، مرق كسهم من مدخل البيت إلى الفناء ثم إلى الشارع حيث السيارة. وجد محفظته كما هي، حمد الله وزفر ما تصاعد من أنفاسه حين أرقته الظنون قبل أن يغمض جفنه بشأن السرقة التي تعرضت لها ثلاث سياراتٍ من حارتهم الأسبوع المنصرم، لم يكن في محفظته شيءٌ يسيل لعاب السارق إلا أنها محفظة لا أكثر، كان يحتفظ بالنقود في جيب ثوبه دائماً، سيكسر زجاج النافذة من أجل ما لا يستحق بالنسبة للص، كان أكثر شيءٍ حرص على عدم فقدانه عدا بعض البطاقات والرخص، صورةً وحيدة لأمه، والمحفظة نفسها، التذكار الأجمل من جدته لأمه التي قدمتها له هديةً بعد إحدى سفراتها لمكة. عاد إلى حجرته ليكمل نومته، الساعة تشير إلى الثانية والنصف بعد منتصف الليل، كان الهدوء شبه أبدي في تلك البقعة وذلك الوقت، كان العالم كأنه قد فرغ للتو من كل الكلام، وأخذ يحدق في الفراغ.

صباحاً، بعد السابعة بدقائق، حين كان يتأهب للخروج إلى العمل، شيءٌ ما وهو خارج من غرفته أخطره بأن خزانة الملابس التي فتحها منذ لحظات كانت أصغر من العادة، كما أنه لم يلحظ مكتبته الصغيرة مكانها قريباً من الباب بجانب الخزانة، عاد أدراجه ليتأكد من ذلك، المكتبة لم تكن موجودة، مكانها أضحى مسافة كبيرة بين الباب والخزانة، الخزانة أيضاً ليست خزانته، هذه بيضاء ببابٍ واحد، أرففها يسار الباب خالية عدا الرف الأعلى الذي

كانت تستلقي عليه بدون ترتيب ملابس داخلية قديمة، مشاعر متضاربة بين الريبة والغرابة والألفة تعتلج في نفسه، لا يدري بم يشعر؟ أو بالأحرى بماذا يجب أن يشعر؟! كانت نفسه تسوقه لا إرادياً للخروج من الغرفة حالاً دون أن يقف حتى على مجموعة الكتب الصغيرة التي استلقت على بعضها بإزاء فراشه كبرجٍ متوسط الطول، انحنى ليلتقط أعلاها ذا الغلاف الكرتوني الأخضر الغامق، كان كتاب: رجال حول الرسول، ذلك الذي يحكي لجدته منه كل ليلة يعود فيها إلى المنزل، وكانت هي تتأهب لذلك المجيء بصينية الشاي وطبق المكسرات، نزل مع السلم ليتفقدها وخالته المريضة، الصالة غير مضاءة، باب غرفة جدته مفتوح إلى النصف، جدته ليست موجودة، أبواب الغرف الأخرى مفتوحة أيضاً، خالته طريحة الفراش لم تكن على فراشها، ملاءتها كانت منتصبة كأنَّ شيئاً ما تحتها، الخادمة كانت تصفر بلحنٍ غريب وهي تنظف الحمام، لم تنتبه له، ولن تفهم منه شيئاً حين يسألها عنهما، هرول خارجاً للسيارة، الغريب حقاً أنه حينما بلغ الفناء كان الوقت عصراً، الساعة لم تتجاوز الخامسة والنصف، لم يجد سيارته في الخارج، ربما تعرضت للسرقة هي الأخرى، احتلت سيارة قديمة مكانها، ربما هي سيارة أحد ضيوف الجيران، أو أنها لأبي منصور تاجر السيارات؛ لم يكن يوقف سياراته المؤقتة هنا إلا مرةً واحدة حين كان يرمم واجهة بيته، استأذن فيها من خاله حين كان يقطن معه في الطابق العلوي قبل أن يتزوج ويترك المنزل، منزل أبي منصور الفاخر المصمم بأسلوب أمريكي عصري كان تراباً هذه المرة، بيت جارهم هذال الموازي لأرض أبي منصور والرابض أمامهم مباشرة كان جديداً كأنه بناء هذه السنة، كأن الخمس والعشرين عاماً الماضية لم تصبغ فيه شيئاً من روحها، وتصيبه بالتصدع والتشقق والإعياء. بيت جارهم حسن المسروق ليلة ما قبل البارح أيضاً كان خلاءً تحرسه بعض الأعشاب المخشوشنة، وأعمدة خشبية متآكلة، وأوتاد متفرقة، ومجموعة نفايات تطفو

عليها أكياس ورقية لأرز بخاري متناثر عثت فيه القطط بحثاً عن قطعة من اللحم. كان يرى ذلك متأملاً تأمل عابد تكور على نفسه داخل كهف لتسمو روحه أكثر كلما فكر في ملكوت الله، أدار بالمفتاح الذي معه قفل باب السيارة المركونة مكان سيارته، انفتح بسهولة، ركبها، شغل المحرك، انبعث من المسجل صوت ضعيف متقطع، رفع مستوى الصوت، لم يتضح كثيراً، بعد لحظات ـ حين اعتدل ـ تبين له أنها أغنية: آهات لخالد عبد الرحمن. من مجموعة أشرطة مصفوفة في الكونسول أسفل المسجل لرجاء بلمليح وعايدة الأيوبي، علي العيساوي، ماجدة الرومي، ومنوعات خليجية، التقط شريطاً كان يحبه لرباب: لا للحب، هذه الأشرطة يعرفها جيداً، ذلك الخليط الموسيقي العربي كان مكوناً واحداً لذوق واحد، هو ذوقه بلا شك؛ لكن الزمن لم يكن نفسه، المرحلة لم تتحدث فحسب، بل انتهت وقضي بعدها عقدان من السنين، السيارة لم تكن له، لا يعرفها أبداً؛ لكنها مناسبة بكل تأكيد، حين أمال برأسه مع ألحان جملة : «حبيبي عاد زودها زيادة»، سار نحو المطعم، كان يشعر بالجوع، سيذهب لمطعم الشراع، سينعطف قبلها لمحل الفيديو ليستأجر فيلم « عادل إمام « الجديد «المنسي». قبل أو أثناء أذان المغرب، سينعطف من شارع الستين مع إشارة السوق المركزي؛ لشارع الثلاثين سيتجه بعدها من التقاطع الأول يساراً باتجاه شارع مدرسة تحفيظ القرآن؛ لكن شيئاً غاص في بطنه كلكمةٍ قوية جعل أمعاءه تتصلب لدقائق منعه من أن يسير بذلك الاتجاه، وقف بسيارته يميناً عند أرض ترابية كبيرة، نزل ليستند على إطار سيارته بظهره ويبكي واضعاً كفيه على وجهه، بعد لحظات قليلة ستقف السيارات المنعطفة من أول الشارع ـ بعد ضلع الجبل ـ هنا على مشارف هذا التقاطع، كذلك ستفعل السيارات القادمة من اتجاهه هو، سيتجمهر المارة، الراجلون، مجموعة الشباب الواقفون أمام محل التسالي هناك قبالته تماماً قبل التقاطع، سيجرون بضع خطوات فقط شمالاً، المرأتان اللتان تقفان عند محل الخياط،

ستبقى منهما واحدة فقط قبل أن يطلب منها الرجال المغادرة، الأخرى لا أحد يعرف أين اختفت حين ستسيل دماء أمه الطاهرة في تلك البقعة. هب من مكانه واقفاً ليشاهد السيارة الآثمة، سيحاول أن يراها جيداً هذه المرة، سيتعرف على ملامحها، سيلتقط التفاصيل، سيدونها في هاتفه حتى لا يتكرر ذلك الأمر، لا بد أن تتم معاقبة الجاني، لن يفر بفعلته كما فعل؛ لكن ليس لديه هاتف الآن، سيحفظها إذن، سيرددها كثيراً في سره، غير أن الوقت مضى دون أن تتوقف السيارات بمساريها على مشارف التقاطع، لم يجرِ أحدٌ من أولئك الشباب الواقفين أمام المحل، لم تتحرك إحدى المرأتين صوب العباءة التي كانت ملقاةً هنا، الأخرى بدت واضحة في مكانها خلف الأولى، أمه تخرج من هناك، لا تسير على الأرض، كان ارتفاعها منخفضاً، حين اقتربت من البقعة، حلَّقت عالياً، ارتفعت بطمأنينة، كانت تبتسم من بعيد، يعرف أنها تبتسم، لم يستطع مبادلتها تلك الابتسامة، كانت ترتفع نحو السماء كريميديوس الجميلة، يعرف تلك الفتاة جيداً، ولكن لا يذكر أين شاهدها؟ أو سمع عنها؟ أو ربما كان قد قرأ عنها! ما زالت أمه تبتسم من الأعلى، لم يشاهدها أحدٌ سواه، وسائق أحد السيارات المنزوية قريباً من المدرسة، هناك في الخلف حيث حقيبة أمه السوداء الصغيرة تتدلى من المرآة اليمنى لسيارة الرجل، كان يستشرف بيده موضعها من السماء، لم يتضح منه شيئاً، كان كأنه يضع لثاماً ما، ذاب فجأة حين استقل هذا سيارته ليلحق به، توقف من فوره حين رأى شاباً يافعاً يستقل سيارته القديمة، نعم سيارته الكابريس ٨٨، بهيكلها ذاته، برقم اللوحة، نزل من السيارة ليتفحص المكان؛ لكن لا أحد ينتبه له غيره، انحنى ليلتقط شيئاً، كانت الحقيبة، الحقيبة التي تدلت آنفاً من المرآة، التقطها وأخذ يجري دون وجهةٍ يبكي، لا أحد يوقفه، لا أحد يواسيه، لا أحد يشعر به، ركب السيارة وانطلق بها جنوباً، ربما نحو المنزل، لحق نفسه آنذاك، تبع يتمه المولود، حين بلغ المراهق الشارع المعترض بالحديقة من

خلفه، انعطف يميناً ثم يساراً بإزائها، فإذا هو على بعد شارعين من المنزل كما خمن هذا؛ لكنه لا يذكر أنه عاد إلى المنزل، ذاكرته لم تعد كما يعرفها حقاً، يصيبها العطب كلما منحها فرصةً للعمل وإن كانت قليلة: تتداخل الأشياء، تلتبس الظروف، تزدحم الأمكنة، كأنه يعبر شوارع من حلم، ويسير في دروب نائمة. دخل المنزل خلف نفسه المكلومة قبل عقدين، لم يكد يدخل البيت حتى رأى خاله مع أحد أعمامه في حالة رثة، كانا مشغولين للحد الذي لم ينتبها فيه لوجوده، لم يضع ثانية في التفكير إزاء ذلك الرابط الغريب، تبع المراهق دون أن يتساءل عن شيء، الذاكرة كانت تصرفه عن التساؤل والتفكير، البيت كان بنفس الحالة التي تركه فيها قبل ساعةٍ أو أقل - ربما - من الآن، الأبواب مفتوحة؛ لكن أقل من أن تكون مشرعة، الملاءة المنتفخة في فراش خالته استدقت قليلاً فأضحت كسنام، جدته ليست في غرفتها ولا في الصالة، اقترب من فراشها، كان يضوع برائحة العود والعنبر، الكتاب الذي التقطه من غرفته اليوم ولم يفقده ها هو قريباً من وسادتها الفارغة، كان يأمل أن يراها، نظر تحت السرير، لم يجد شيئاً، أو أحداً كان يبحث عنه، الخادمة كانت هي الوحيدة التي تستظل بالمنزل، وجدها في المطبخ مستغرقة في انتظارها لغليان الماء من ذلك الإبريق الكبير الذي لم يكونوا يستخدمونه كثيراً، أحدهم يضرب على منبه سيارة في الخارج، كان الصوت جهيراً، هرع إليه قبل أن يتحول إلى ضجيج في ذلك الهدوء المبهم، لم يجد خاله وعمه في الفناء، كذلك لم يجد سيارته قبل اثنين وعشرين عاماً، ركب في سيارة النقل الكبيرة التي كان سائقها يضرب المنبه، انطلق معه دون أن يعرف الوجهة، كانت الحارة حديثة بزمنها الذي يعرفه، هذا بيت هذال القديم المشروخ، وهذا منزل جارهم أبي منصور الفخم، لكنه لا يعرف هذا السائق، ربما كانت سيارة خاله أو عمه متعطلة، ليحملها هذا بعربته هذه، أو ربما كانت سيارته هو المتعطلة، لم يجدها في مكانها، أتكون سرقت؟! المحفظة! نسيها، ذاكرته

تعود قليلاً، انتفض، تفقد جيوبه، لم يجد شيئاً، كان هو والسائق كأنهما على براق، لم تكن سرعة السيارة أو البراق لتمنحه الفرصة للكلام، كان الهواء يضرب وجهه وجسمه كمدفع ماء، شعر بأنه يطير من قوة الدفع، يرتفع بدرجة مناسبة إلى أن بلغ نقطة معينة حتى هبط بسرعة فوق الوصف، كأنه قذف من حالق على سيارته الحديثة؛ الأشبه بخرابة في مقبرة السيارات، ربما كان الوقت نهاراً حين أدارت الدوامة الأفق الذي كان ينظر إليه وهو ساقطٌ محله، ذراعه اليمنى ممدودة باتجاه مقعد الراكب متحفزةً منذ لحظات قبل أن تخمد، أحدهم يصيح لصاحبه في المحل:

ـ وجدتُ محفظة تحت مقعد تلك السيارة....

مرةً أخرى، اجتمعت في تلك اللحظة روحه في عينه وكفه المقبوضة لتنظر إلى الأعلى، هناك نحو السماء.

المحتويات

أنا لستُ سوى إنسانٍ على كل حال، ولأجل ذلك كان لا بد من أن أتجاهل تلك الأصوات في داخلي، تلك الأصوات التي كانت تؤنبني بين لحظةٍ وأخرى جراء ما فعلته بشأن تلك السفينة، سفينة غوستلوف. الكثير ــ منذ زمن وحتى الآن ــ كان يتحدث عن أن السفينة كانت تحمل مدنيين لاجئين وهاربين، وكانوا غالبيةً عظمى من النساء والأطفال والكثير كان يعتبرني مجرمَ حربٍ ــ حتى من الروس أنفسهم ــ لكن كيف لي أن أهتم لذلك وأنا على مشارف أن ألقى حتفي بتهمة الخيانة؟! كان لا بد أن أقدم قرابين ثمناً لبقائي، وكان لا بد من أن أعمل على تجديد ثقة قادتي بي، ولو لم أكن إنساناً حقيقياً لما فعلتُ ذلك. أنا لا أصدق الألمان كثيراً، كما أني لستُ أكذبهم تماماً، العدد كان كبيراً حقاً، لا زلتُ أذكر الكتل النافقة على سطح البحر حين سكنت الريح وهدأت الأمواج لكن لا أظنه بلغ 10 آلاف كما تقوله التقارير مؤخراً.


ISBN 978-603-02-5104-9

